يحيى القيسي
Yahya Alqaisi

أبنـاء السمـاء
Children Of Heaven

رواية

تنويه

أيها القارئ،

إن كنت ترى في هذه الرواية خيالاً جامحاً محضاً لا يقترب من الواقع فأنت محقّ في ذلك، وإن وجدت فيها حقائق صافية تفوق الخيال نفسه، فأنت محقّ في ذلك أيضاً!

تحذير

أما وقد وصلت إلى هذا الباب، فاعلم أنّك إذا ولجته لن تستطيع العودة إلى الوراء، وربما تتوه في الدهاليز التي تفضي إلى المتاهات، وستنكر نفسك التي بين جنبيك...

فاحذر وعد من حيث أتيت تنجُ..!

عمّان - قاع المدينة

(٧ شباط ١٩٨٧)

كلّ ما أذكره أنّني كنت مطارداً من قوىً خفية، تتربص للفتك بي...!

كان الليل قد انتصف، والمطر يهمي بغزارة غاسلاً شوارع عمّان، وقد خرجت للتوّ من «حانة البلد» أترنح تحت وطأة العرق الرخيص المشبع بالكحول، محاولاً الهروب من وعيي الذي أثقلني، وذلك الخوف الذي يسكنني..!

تجاوزت الزقاق المظلم الذي يفضي إلى «شارع الأمير محمد» في قلب المدينة، متخطياً الظلال البشعة التي كانت تتقافز أمام ناظري...!

بدا الشارع لي خاوياً مع اشتداد زخّات المطر.

لمحت قططاً سوداً بعيون معدنية برّاقة، وبضعة رجال ملثمين بالشماغات، ومتلفعين بالمعاطف الثقيلة، يلوذون بزوايا الحوانيت التي يزدحم بها السوق.

منذ أيام وأنا أعيش هلوسات رهيبة، كما لو أنّ كلّ ما

حــولي قــد تحــول إلى كــائنات غــامــضــة تقف فــاغــرة لتلتهمني...!

قطعت الشارع إلى جهة «مطعم هاشم».

كانت رائحة الفلافل المقلية، والفول الساخن تصل إلى أنفي.

لو كنت في حال أخرى غير هذه لعرجت إلى هناك لتناول عشائي مع كأس شاي بالميرمية كما كنت أفعل عادة، لكنّي مثقل بالشراب والغثيان، ومطارد من المجهول..!

ركضت صعوداً باتجاه طلوع «درج الكلحة» أو ربما خيّل إليّ أنني كنت أركض...

صادفتني سيول المياه الهابطة إلى قاع المدينة غاسلة الدرجات الحجرية في طريقها. كنت أقصد بيت صديقي الحسيني في آخر الطلعة علّه ينقذني مما أنا فيه أو يطمئن قلبي الراجف بأنّ ما أراه محض خيال وتهيؤات!

وصلت بسطةً في منتصف الدرج تقريباً حيث استندت إلى جدار وأنا ألهث، جاءني خاطر صاعق بأنّني وقعت أخيراً في فخ الأشباح ولا منقذ لي الآن وسط عتمة عمان.

شعرت بحرارة جسدي تزداد كما لو أنّ حريقاً يدبّ فيه، تعالت دقات قلبي مثل طبول، وبدأت غشاوات تملأ عينيّ، ورأسي يزداد ثقلاً، فيما زعيق مبهم يلتهم أذنيّ،

ورأيت هذه المرة بعيني المجردتين كائنات بشعة تحيط بي، وتجثم بثقلها على صدري...

كان عددها لا يحصى وذات ملامح هلامية غائمة.

بدت لي تلك الوجوه غير آدمية، أقرب في تشكّلاتها إلى الوحوش، فيما تمتد الأيدي ذات الجلود الدبقة لتجرني باتجاه هوة سوداء تشبه دهليزاً يدور بسرعة هائلة...!

بدأت أصرخ، ولكنّ صوتي كان يغور في داخلي، ولا ينطلق، وآخر ما أتذكره أنّني كنت أهوي إلى الأرض، أو كأنّ عمَان كلها تهوي عليّ، ولوهلة شعرت كما أنّ الموت قد جاء أوانه، فقاومت بلا جدوى أشباحاً تشبه دخاناً كثيفاً وممغنطاً، فيما تسلل خدر ليشمل كلّ جسدي، وحينما غطست في الظلمة الحالكة لمحت نوراً كشف لي عن وجه رجل أليف لم أره من قبل يبتسم لي ويقول:

لا تقلق... ستكون بخير إن شاء الله..!

جبال عجلون
(قبل ذلك بثلاثة أشهر -٢ صباحاً)

كنّا أربعة رجال وامرأة يجمعنا شيء واحد في تلك الليلة الباردة ونحن نتحسّس طريقنا وسط بستان جبلي يزدحم بأشجار الزيتون المتشابكة!

بدا المكان لنا مهجوراً وغارقاً في العتمة. انتظرنا إلى أن خلت الطريق المجاورة من السيارات، وسكن كلّ شيء من حولنا، حتى إنّ أضواء «عجلون» البعيدة قد انطفأت تقريباً، وظهرت لنا القرى المترامية تغطّ في نومها مع اشتداد رياح كوانين.

اخترنا أحدنا لمراقبة المنطقة داخل سيارة (البك أب) التي جئنا بها، أو التجول غير بعيد عنّا، وإبلاغنا بأيّ حركة قد تكشف عن وجودنا، فيما شرع ثلاثتنا بالتناوب على الحفر في المكان الذي عينته لنا المرأة بجوار صخرة ظهرت عليها نقوش على شكل أفعى ملتفة وفوقها رموز أخرى غير واضحة المعالم.

لم يكن الأمر هيّناً، فقد كان علينا أن ننتظر أولاً كي

تنهي المرأة طقوسها العجيبة.

أشعلت بخوراً كان معها في صرّة قماشية، وبدأت تقرأ مجموعة من التعازيم بلهجتها المغربية السريعة، وكان علينا أيضاً أن نتحمل برد الشتاء القارس، والأرض الطينية المشبعة بالماء، فيما رفاقي يتوقعون أن تنقضّ علينا في أيّة لحظة عفاريت الكنوز الحارسة، وكنت أكثر واقعية منهم وأنا أتخيل أن تداهمنا الشرطة أو يكتشف أمرنا أهالي المنطقة فتتبدّد أحلامنا في الهواء!

تذكرت وأنا أنهب تراب الأرض بالمجرفة تلك الروح المغامرة التي تسكنني، والرغبة المشتعلة لنيل الثراء السريع في بلد يعيش الناس أحلامهم القصوى فيه بامتلاك بيتٍ أو سيارةٍ أو عروس، ولم يكن لديَّ شيء من كلّ ذلك!

كنت معلماً أدرّس القيم الفضلى للطلبة في النهار، وصياداً للكنوز في الليل، وكانت حكايات جرار الذهب والكهوف الملأى بالجواهر الرومانية واليونانية تلهب خيالي!

ربما لم يتبق أحدٌ في هذه البلاد إلا جرّب حظّه معها، بل إنّ بعضهم عثر على سبائك ذهبية تعود إلى أيام العثمانيين، فحينما طارد الجيش العربي وحلفاؤه البريطانيون وقبائل البدو ما تبقى من فلول جيش الإمبراطورية العثمانية إلى تخوم الشام أثناء هزيمتهم الماحقة في بدايات القرن العشرين، بعد أربعمئة سنة من

الاحتلال باسم الإسلام، لم يجدوا وسيلة غير أن يتركوا كنوزهم مدفونة في أماكن مخصوصة علّهم يرجعون إليها ذات يوم.

كانوا قد وضعوا خرائط وعلامات لا يعرفها غيرهم، وسرعان ما عاد بعضهم أو قام بتسريب تلك الخرائط إلى آخرين، فيما دبّت الحمّى عند الأردنيين بالبحث عن «المجيديات العصملية» طيلة القرن العشرين، وتكاد بعض أراضي المملكة تكون قد حرثت شبراً شبراً من المغامرين أمثالي، والعاطلين عن العمل، وأبناء الدولة الرسميين، والحالمين بحثاً عن اللقى، وثمّة دائماً لكلّ مجتهد نصيب مما تجود به الأرض.

لم تكن مغامراتي خاوية تماماً، فمنذ بدأت الدخول إلى هذا العالم السرّي الليلي قبل نحو سنة عثرت على جرار فخارية فارغة ذات أحجام متفاوتة، وصحون وأباريق زجاجية، وعملات قديمة من الفضة تعود لعصور سحيقة، وأساور وقلائد ومكاحل للزينة..، فقد مرّت أمم كثيرة على هذه البلاد..، وعثرت أيضاً على أسرجة كانت تستخدم للإضاءة بوضع الزيت فيها، وخناجر صغيرة الحجم، وأكوام من عظام مهشّمة كانت على ما يبدو تسند أجدادنا الغابرين، ولكن ظلّت جذوة أمل مشتعلة في أعماقي لأن أعثر ذات ليلة على كنوز خرافية لملوك وأباطرة بائدين؛ ربما

كؤوس ذهبية وسيوف مرصّعة بالزبرجد، وحليّ موشاة بالعقيق وأنفس المعادن، وصناديق مليئة بكلّ أنواع المجوهرات!

لقد عرفت أناساً عديدين أثروا من النبش في الأرض. كانوا محظوظين طبعاً، وقد أصير أنا مثلهم بين ليلة وضحاها، وسمعت حكايات عن أنّ بعضهم مات بطريقة غامضة، أو مسّهم شيء من الجنون، وآخرون أمسوا شحاذين يستجدون الناس في الطرقات بعدما بدّدوا كلّ ثرواتهم!

فريق آخر من أبناء القرى والمناطق الحدودية بشكل خاص كان منشغلاً بالتهريب ابتداءً من السجائر والأغنام مروراً بالسلاح وانتهاءً بالمخدرات، وتلك كانت مهمّة صعبة عليّ لا أستطيع إتقانها، إضافة لخطورتها التي قد تودي بحياة المرء أو إعاقته برصاصة طائشة أو مقصودة، أو زجّه في السجن في أحسن الأحوال، ولعلّ أخلاقياتي عموماً لم تكن تسمح لي بمثل هذه الممارسات؛ إذ كنت قد خرجت بجملة من المبادئ الشيوعية التي رافقتني طويلاً منذ دراستي الجامعية في الاتحاد السوفيتي، من بينها أن لا أكون انتهازياً، ولا أؤذي رفاقي من الطبقات الكادحة، إضافة إلى تربيتي العائلية الصارمة.

خلال عملي الليلي هذا عرفت الكثير عن عالم

الدفائن، وبعض الإشارات التي تدل على الكنوز المخفية، وإلى أيَّ الأزمنة تعود، والتجّار الذين يشترونها في العاصمة، وأيضاً ضرورة أخذ الاحتياطات اللازمة لمثل هذه المهمّات الليلية، مثل مصباح مع مجموعة بطاريات، وبعض الطعام، وأدوات الحفر، والاعتماد على رفقة مضمونة، والأفضل أن يكون العدد صغيراً، وفي حالات خاصة يجب أن يكون هناك شيخ مغربي أو من أهل البلاد القادرين على فكّ «الرصد» أو لجم حارس الكنز، وهو من الجان كما يقولون، ولعل طبيعة تفكيري التي لا ترى في هذا العالم غير المادة والأشياء المنظورة التي يقبلها العقل جعلتني دائم السخرية من هؤلاء المتوهمين!

قلت لنفسي إنّ الأمر لا يعدو أن يكون أكثر من مسألة نفسية، وأنّ هذا العالم غير موجود أساساً إلا في عقول مصدقيه، وكلّ ما هو غير ملموس أو محسوس غير موجود في قاموسي، وكانت حكايات رفاقي عن العفاريت التي تخرج لهم في الليل وهم يحفرون تكاد تطيح بي إلى الأرض من شدّة الضحك!

صار لي أكثر من سنة في هذه المهنة الليلية، ولم أر ما يبعث على القلق، اللهم إلا مرّة واحدة حينما قفز الرجل الذي أمامي هارباً، وتبعته فقد كانت ثمة أشياء تتحرك فوق أقدامنا، واكتشفنا مجموعة من الجرذان الخارجة من نفق

ترابي انفــتح فــجــأة على كنزنا الذي ننتظر، وأدركنا في الصباح أننا كنا نحفر قرب قنوات امتصاصية لفضلات أهالي البيوت المجاورة، وصارت تلك الحادثة مدار تندّر طيلة أشهر حيث ظلت العبارة الشهيرة تتناوب بيننا:

«لقد عثرنا على كنزٍ خرائي»...!

❖❖

أشارت لنا المرأة التي ترتدي ثوباً أسود وشماغاً مرقطاً بالأحمر لتبدو مثل نساء منطقة الشمال، خوفاً من افتضاح أمرنا أن نتوقف فجأة، واقترحت علينا أن نبدأ تركيزنا بالحفر على نقطة ما لأنَها تقود إلى المدخل.

تناوبنا على توسيع الحفرة بفؤوسنا رأسياً وجانبياً حتى انهال التراب وبدا لنا ما يشبه الباب..!

كدنا نطير من الفرح، إذ إنّ ما خطّطنا له يبدو قريب المنال.

عدنا للحفر حتى اتضح لنا باب غرانيتي أسود بكامله... بدأ صخبنا يعلو من شدة الانتشاء فقد جاءت أخيراً ساعة الحظ !

قالت المرأة: يكفي.. اصمتوا الآن ودعوني أركز..

بدأت بترديد أحرف معينة والمناداة على أسماء غريبة وهي مغمضة العينين، فيما كاد بخورها المتصاعد ذو

الرائحة الحريفة أن يعمي أعيننا.

كانت تبدو لنا جادة في طقوسها وغارقة فيها تماماً، ونحن حولها مجموعة من المغامرين المشدوهين الذين تلمع في أعينهم قلادات الذهب، وفصوص الأحجار الكريمة..!

كان رئيس فريقنا فوّاز ضابط أمن متقاعداً، ومعه مجموعة من أقاربه من منطقة «الوسط»، وقد تعاهدنا معاً أن لا نفشي أسرارنا، وفي الحقيقة فقد وثقوا بي حينما عرفوا أنّ والدتي من إحدى العشائر التي تنتمي إلى منطقتهم، إضافة إلى أنّني من المغضوب عليهم والضالين أيضاً لدى «المخابرات»، فلم يكن لي من ذنب إلا أنّني تخرجت من بلد الشيوعية العتيد في تخصص هندسة الطائرات، ومعروف أنّ الطريقة المناسبة لتبديد أية طموحات سياسية أو علمية لي، أو عقابي على دراستي هناك في ذلك الوقت هو تعييني معلماً للعلوم في مدرسة ابتدائية في إحدى قرى صحراء المفرق الحدودية!

لم يكن أمر تعييني سهلاً أيضاً، فقد تكفل والدي الوكيل المتقاعد من سلاح المدرعات، بالتذلل إلى الكثير من رجال الدولة وشيوخ العشائر لكي أجد هذه الوظيفة البائسة، أما العمل في المطار مثلاً لاستغلال دراستي المتخصصة فتلك كانت أمنية تهون دونها أمنيات أبطال ألف ليلة وليلة، وفي النهاية عرفت أنّ هناك من كتب من زملائي

الطلبة أو رفاقي الدارسين تقارير للجهات الأمنية عن ميولي الشيوعية، ونشاطاتي الطلابية تحت اسم «فاعل خير» كما يحصل عادة!

عشت عاماً ونيفاً هارباً من البطالة والجوع في قرية، أو لأكنْ دقيقاً وأقُلْ «تجمَّع للبدو» على شكل قرية تضمّ خليطاً من الناس يحمل أكثرهم جنسيات مزدوجة سورية أو سعودية أو عراقية إضافة إلى الأردنية طبعاً، ويعبرون الحدود جيئة وذهاباً بسياراتهم البك أب غالباً بلا تردد.

تلك أيام قد خلت، وها هو فواز بك كما يحبّ أن نناديه يحدثنا من عجيب حكاياته، وكيف أنّه كان رجل المهمات الصعبة لإحدى الشخصيات الكبيرة المتنفذة من الذين يبحثون عن الذهب مثل بقية الأردنيين، وهناك اكتسب خبراته في معرفة مواقع الكنوز وأسرارها.

قال مرّة إنّ البلد فيها مجموعات متخصصة لمثل هذه الأمور، بعضهم لديه أجهزة غريبة رنّانة لكشف الذهب والمعادن يأتون بها من أميركا سراً، وهناك آخرون مدعومون من الجهات العليا تأتي إليهم إخباريات عن أماكن معينة توجد فيها الكهوف والمقابر القديمة التي من المحتمل أن تضم في أعماقها الكنوز، وضرب لنا مثلاً منطقة وادي «قويلبة» في أقصى الشمال، وكيف اكتشف بعض أهلها فيها مجموعة من المدافن اليونانية، وتطوع «فاعل خير» أيضاً

بإخبار الجهات الحكومية عن ذلك، وسرعان ما وصل الأمر إلى ذلك «الشـــخص الكبـــيـــر» الذي بدوره أرسل طائرة هيلوكبتر مع مجموعة من حرسه لنقل الصناديق التي لا يعرف أحد إلى اليوم ماذا حوت من الكنوز، أو المخطوطات أو ربما مجموعة من عظام الأجداد البالية!

كان ذلك في منتصف الستينيات، لكنّ مناطق أخرى كثيرة في مأدبا والسلط والكرك وتلّ الحصن شهدت كذلك تنقيباً عن الدفائن من الناس الباحثين عن الغنى السريع أمثالنا، مع الفرق في أنّ بعضهم كان مدعوماً من رجال الدولة التي تستطيع أن تحضر أحياناً جهاراً نهاراً بجرافاتها وعمّالها، وتضرب طوقاً على المكان، وتمويهاً على ما يجري!

قال فوّاز بك مرَة لنا، كما لو كان يخطب في كتيبة، إنّ الأردن على عكس كلّ جيرانه لا يوجد فيه بترول، لكن أرضه مباركة وتوجد فيها كنوز كثيرة، ومن حقّ كلّ واحد منا أن يبحث عن رزقه!

وقال:

الدفينة لمن وجدها، ونحن لا نسرق، أو نزرع مخدرات، أو نؤذي الناس، ولا نعتدي على أمن البلد، فأنا في النهاية ابن هذه الدولة وتهمنّي مصلحتها، ولكن من غير المعقول أن أبقى معتمداً على راتبي التقاعدي الذي بالكاد يكفي الأفواه

الستة الفاغرة التي تنتظرني في البيت...»!

قلت له ذات لحظة صفاء:

فوّاز بك لماذا لا نشتغل مع الدولة بشكل مباشر أي أن نخبرهم عن الدفائن التي نجدها ونعطيهم نسبة مثلاً مما نجد ونرتاح بدلاً من هذا التستر المتواصل..؟

قال لي حينهما ساخراً:

شوف يا أستاذ، الدولة لا تحب أن يشاركها أحد في شيء، وفي أحسن الحالات سيعطوننا عشرة بالمئة، أي من الجمل ذيله، وفي حالات أخرى لن ننتهي من سين وجيم، ونظلّ تحت المراقبة، وربما نساق إلى السجن عند أي مشكلة، لا تجيب هالسيرة مرة ثانية.. أنا أدري أنك تمزح!

فجأة توقفت المرأة وقالت:

أرى كنزاً كبيراً خلف باب الكهف، ولكن لا ينبغي أن نفتحه الآن.. لنعد إليه في يوم آخر..!

جاء رد فوّاز بك صارماً:

أبداً علينا أن نستمر، من يضمن لنا أن لا يأتي أحد ويفتح المغارة غداً.

لم أحتمل ورفيقي الآخر اقتراحها كذلك، فدار نقاش

صـاخب بيننا وبينهـا، قـالت لنا إنّ هناك رصـداً قـوياً من فصيلة الجن الأحمر، وليس بإمكانها التغلب عليه..

قـالـت إنّ الأمـر لن يتم إلا في توقـيت مـعين، وضــمن تجهيـزات أخرى من البـخور، والـتعـازيم، وحسـابات دقيـقة للسـاعـات الفلكيـة، وأنّ كل شيء في أوانه، وإلا سـتكون العاقبة وخيمة على الجميع..!

رفض فوّاز بك ورفيـقه العودة، وشجعتـهم بدوري بكلّ لامبـالاة وسخرية على المضي حتى لو كان الجنّ الموجود من النوع الأزرق...!

بعد نقاش محتدم يحمل عنصر التهديد من المرأة بدا أنّ رئيس مجموعتنا قد اقتنع بكلامها، فخبراته في هذا الاتجاه تحكم عليه أن يتبع رأيها، لا سيما أنّها كانت دقيقة في وصفها للمغارة، ولكنّه اقترح حلاً وسطاً وهو أن نفتح البـاب الحجري الضخم قليلاً لنرى ما خلفه لتطمئن قلوبنا المتعبة، ثم نقوم بطمر المكان ونعود إليه لاحقاً.

هبـبنا نؤيد كـلامه، فيمـا ضاعت توسـلات المرأة بيننا دون جدوى وهي تستحلفنا أن نتوقف، وأخيراً انتبذت مكاناً بعيداً تراقبنا وهي تتمتم بسخط!

بدأ ثلاثتنا بدفع البـاب الثقيل معاً بكلّ حماسة فانفرج قليلاً. جرّبنا مرّة أخرى، وصار بإمكان الفتحة أن تتسع إلى

أن نطل منها على ما في الداخل.

سلّط فواز بك ضوء المصباح على ظلمة المغارة فاندفعنا جميعاً في كتلة واحدة نحو بقعة الضوء، ورأينا ما عقد ألسنتنا من الدهشة!

عمّان - اللويبدة

(١٠ شباط ١٩٨٧)

أتمدّد على السرير لا أكاد أنطق. بدأت أستوعب شيئاً فشيئاً ما يدور حولي، وأستعيد عافيتي، أطلّ عليّ وجه الحسيني مطمئناً إياي:

الحمد لله على السلامة، يجب أن نحتفل بنجاتك من الموت، ما رأيك أولاً بفنجان قهوة، وأضاف بلهجته المصرية المحبّبة «حتى يعدلك دماغك يا راجل»..!

أومأت برأسي موافقاً، وعرفت أنني الآن في شقته الصغيرة، وأنّه وجدني في تلك الليلة بالصدفة مرمياً على الأرض في حالة شبيهة بالصرع والزبد يخرج من فمي، وملابسي مبلولة ومتسخة، وبالكاد أتنفس، وأهذي بجمل مبهمة!

حدّثني كيف أخذني إلى بيته القريب حينها بعد أن أيقظني قليلاً من غيبوبتي، وأعطاني بعض الأدوية المهدئة، واهتم لأمري حتى تعافيت، وقال بابتسامة مطمئنة:

لا تقلق فكل شيء في هذا الكون مرتب تماماً، وكان يجب أن أكون قريبا منك تلك الليلة.. !

وقلت له ممتناً لمساعدته: تعجبني طمأنينتك يا صديقي تجاه هذا العالم يا ليتني مثلك ؟

كم كنت أودّ لو يكشف لي عن سرّ تلك الابتسامة الواثقة التي تحمل طيبة الكون وهي تفتر عن ثغره، وذلك الحجاب الغامض الذي يلتف به، حتى لا أكاد أحياناً أعرفه. لقد جرى لقائي معه بالصدفة المحض، وها هو ينقذ حياتي بالصدفة أيضاً، يا للصدف الغريبة..!

أما أنّ كلّ شيء مرتب في هذا الكون فتلك طمأنينته الخادعة كما أحسب، قلت ذلك لنفسي وأنا أتذكر أول لقاء لنا في «مقهى السنترال» وسط عمان القديمة منذ نحو ستة أشهر، كنت ذاهباً للقاء زميل دراسة سابق هناك لكنّه لم يكن وحده، قال لي أريد أن أعرفك على الدكتور أحمد الحسيني من مصر، خريج سبقنا بسنوات من جامعة لينينغراد ومتخصص في الطب العام، وهو ضيف يعيش بيننا ويعمل هنا في عمان.

أذكر أن زميلي قال لي كذلك إنّ الحسيني لديه اهتمامات خاصة «كونية غرائبية ليس لها علاقة بالشيوعية» ولم أنتبه حينئذ لتلك الجملة، بل حسبتها نوعاً من السخرية، لكنّ الرجل الأربعيني ذاك دخل قلبي برزانته،

وبخبراته في الحياة التي جاءت به أخيراً إلى هذه البلاد، وذلك الغموض الذي يرافقه في حركاته وسكناته!

فيما بعد التقيت صديقي الجديد مراراً، والذي يحبّ اختصار اسمه إلى «الحسيني» على الرغم من أني كنت أودّ مناداته بلقبه «دكتور» احتراماً له، ولفارق السنوات العشر التي بيننا تقريباً، لكنّه كان عفوياً ومن النوع الطيب الذي يدخل إلى القلب مباشرة، ولا يهتم للمواضعات الاجتماعية الرسمية.

كانت أحاديثنا تستذكر أيامنا في روسيا غالباً، وفهمت منه أنه جاء إلى عمان كنوع من التغيير هرباً من ظروف عائلية أحاطت به، وأنه وجد عملاً في مستشفى لوزميلا القريب من بيته في أول طلوع جبل «اللويبدة»، ما يمكنه ليعيش بهدوء، غير أن تلك الحكاية لم تكن تبدو لي مقنعة تماماً، ولكنّي لست من النوع الذي يحبّ الخوض في تفاصيل حياة الآخرين وظروفهم.

انتبه الحسيني إلى ذهولي عنه، وقال محاولاً إعادتي إلى هذا العالم:

والآن يا صائد الكنوز حدثني عن آخر مغامراتك، وما جرى معك تلك الليلة؟

قلت له:

ما جرى أمر غريب لا أفهم له تفسيراً.. أعتقد أنني كنت قادماً إليك في تلك الليلة لتنقذني من شيء ما كان يطاردني، ودعني أحدثك أولاً عن تغير أحوالي منذ رأيت ذلك الكنز المشؤوم...»..!

وسرت رعدة هائلة زلزلت جسدي وأنا أصف له بالتفصيل ما جرى معنا في جبال عجلون، وتلك اللحظات التي تلت دفعنا لباب الكهف الغرانيتي الهائل:

ربما لن يصدق أحد ما أقول، ولكنّي حقاً رأيت أكواماً من الكنوز والقطع الذهبية والمعادن الثمينة التي لا تقدر بثمن ولا نقوى على حملها، وهي تتوهج تحت ضوء مصابيحنا مسببةً لنا ما يشبه الدوار...

لقد عثرنا أخيراً على بغيتنا التي ستجعلنا أثرياء إلى الأبد. كنّا جميعاً في حالة من النشوة المدوّخة، وكان وجه فوّاز بك يبدو مثل طفل أبله تمّ تنويمه مغناطيسياً، لا يعرف ماذا يفعل، وقال فجأةً وقد استيقظ من ذهوله:

- علينا أن نخرج الدفينة بسرعة، لا وقت لدينا هيا افتحوا الباب أكثر!

كانت المرأة لا تزال تستجدينا بكلام لم يعد مفهوماً، وتحول إلى ما يشبه النواح، وكان بصرها شاخصاً إلى الأعلى كمن يرى شيئاً لا نراه، ولم يكد فوّاز بك ينهي

تعليماته، حتى بدأنا بدفع الباب أكثر لنتمكن من الدخول.

فجأةً خارت قوانا وبدأ الباب ينغلق، فيما تسرب دخان كثيف أحاط بنا من كلّ الجهات حتى لم يعد بعضنا يرى بعضاً، وسمعت صرخات رفاقي تسدّ الأفق، وشعرت كما لو أنّ شيئاً ما يحملني عالياً فوق الدخان ثم يرميني بعيداً، وبالكاد أفقت على نفسي وأنا أسقط فوق أغصان زيتونة متشابكة!

كان ضوء الفجر قد انبلج قليلاً، وبدأت معالم الأشياء تتضح من حولي. كنت مصاباً بجروح ورضوض في أنحاء متفرقة من جسدي، واكتشفت أنّ ملابسي قد تمزقت، وسمعت أنيناً متواصلاً غير بعيد عنّي حيث لمحت قائدنا مرمياً على الأرض، وقد شلّت إحدى يديه، وتغيّرت معالم وجهه!

كان يهذي بجمل غير مفهومة من الاعوجاج الذي أصاب فمه، أمّا رفيقي الآخر والمرأة المغربية فلم نعثر لهما على أيّ أثر، وبالكاد وصلنا إلى «البك أب» هاربين، فيما كان رابعنا الذي يفترض أن يحرسنا يغطّ داخله في نوم عميق، وكأنّ شيئا لم يحدث من حوله!

لقد درست القوى الفيزيائية، والنظريات العلمية والهندسية، وقرأت عن بعض الظواهر الخارقة التي تحدث لبعض الناس في هذا العالم، غير أنّي ظللت مندهشاً من

الذي جرى لنا جميعاً في تلك الليلة!

هبطت عليّ حيرة نهبت ما تبقى لي من طمأنينة ومعارف علمية:

ما الذي حصل بالضبط..؟

من أين جاء الدخان، ولم يكن ثمّة غيرنا، ولا نار موقدة؟ وما هي طبيعة القوة التي رفعتني أمتاراً عديدة في الهواء وأسقطتني فوق الشجرة..؟

كيف شلّ فوّاز بك في تلك اللحظات الغريبة..؟

وما هذا الكلام الذي كان يهذي به..؟

وكيف ولّى بقية الرفاق هاربين ؟

هل ثمة عالم آخر غير مرئي أجهله أم هو من خيالات الليل واضطرابات النفوس؟

وفي النهاية شكّلت هذه الحادثة منعطفاً حاداً في حياتي للتفكير خارج النطاق الذي عرفته، أو خارج الصندوق كما يقولون، لكنّي لم أكن قابلاً لأن أصدق كلّ ما رأيت، أو أن أجد له تفسيراً يدحض تلك الخرافات التي كانوا يتحدثون عنها!

الذي جرى بعد تلك الحادثة أنني وقعت فريسة الكوابيس، كنت أمضي الليل في السهر أدخن غالباً وأشرب

القهوة، هارباً من النوم حتى لا تنقضّ عليّ تلك الخيالات المرعبة التي صارت تطاردني بشراسة في أحلامي؛ مرّة أرى نفسي أسقط من شاهق، ومرّات أصرخ من وحوش سود مفترسة تفتح فمها لالتهامي فأصحو مرتجفا فيما العرق يبلل كل جسمي، وفي النهاية قلت إنّ أفضل حلّ لي أن أغرق في الشراب، ولكنّ الكوابيس التي كنت أراها نائماً أصبحت أشدّ قوة، وتظهر لي في وضح النهار حتى خارت قواي وسقطت أخيراً مغشياً عليّ في تلك الليلة..».

تبسم الحسيني وقال لي:

لا تقلق لقد مررت بتجربة خطيرة، ولكن من الصعب أن أشرح لك الأمر، فثمة احتمالات كثيرة لها، ولكن من المؤكد أنه سيأتي يوم وتدرك ما جرى لك!

قلت له:

إذن أنت تملك تفسيراً لما حدث ولكن أرجوك يا دكتور لا تقل لي شيئاً عن الجنّ الأحمر والأصفر والحكايات المضحكة... دماغي لا يستوعب الأشياء غير العلمية وتخاريف الناس!

صمت الحسيني طويلاً وقال:

شوف يا صديقي أنت غير جاهز أساساً لأن تسمع... ها أنت تضع العربة أمام الحصان، وتريدني أن أتولى

القيادة.. تريد إجابات تنسجم مع معارفك المعلبة وأنا لا أفكر بهذه الطريقة... ولا بطريقة أصدقائك عن العفاريت أيضاً.. دع الأيام والتجارب تجيب!

وأحسست كما لو أنّ كلامي كان قاسياً بحقه، وأنه تأثر قليلاً فاعتذرت منه، ورأيته يسألني محولاً الحكاية إلى شيء من المرح:

لم تقل لي ماذا حدث مع فوّاز بك وبقية جماعته والمرأة المغربية.. ألم تعرف أخبارهم؟

وكان عليّ حينئذ أن أعود بذاكرتي مجدداً لأروي للحسيني ولو بشيء من السخرية ما عرفته من أحوالهم بعد حادثة الدخان التي طيرتني إلى أعلى الشجرة، وأجلستني على ما يشبه الخازوق:

«فقد فوّاز النطق تماماً، وشلّت يده اليمنى، واعوجّ فمه، وصار من غير اللائق أن نناديه فوّاز بك، فقد ذهبت الهيبة التي كانت تجلّله، أمّا المرأة المغربية فلم يعرف أحد عنها شيئاً أو أين اختفت، وكما يقول المثل ذابت كما يذوب الملح في الماء، ربما عادت إلى مراكش، أو ربما لم تكن مغربية أساساً.. لست متأكداً من شيء.. ولم أكن بحاجة إلى أن أعرف مصيرها، فثمة مساحات في ذاكرتي أصابها العطب.

الوحيد الذي كان يعرفها هو قائد فريقنا الذي أصبح لا يتكلم، كما أنّ السائق الذي كان يغطّ في نوم عميق حلف بكلّ المقدسات أنهّ لم يرها، أما رفيقنا الثالث فقد هرب مسبقاً منذ تلك اللحظة التي بدأ الدخان فيها يلفنا كما علمت فيما بعد، ويقال إنّه فقد عقله، ليس من الجنّي المزعوم بل من تلك الجواهر التي لمع بريقها في عينيه، ويقال أيضاً إنّه أصبح يدور في الطرقات حالفاً بالله أنه وجد الكنز، وأنه سيستخرجه عما قريب، وعلمت بعد أسبوع من تلك الحادثة أنّ أهل فوّاز أخذوه إلى الشيخ فالح في قرية «ملكا» المشهور بطرد الشياطين، وفكّ السحر ليعالجه، وعلى عهدة بعضهم أنه كان يضربه بالنعال على فمه ليعدل من وضعيته، وهو يصرخ: أخرج يا عدو الله من عبد الله..!

وعلمت بأنّ الشيخ أوصى بأن يتم إحضار بقية رفاقه إليه لتخليصهم من مسّ «الرصد» وإلا لن يهدأ لهم بال..!

وبالنسبة لي فقد كان عرض الرجل مضحكاً فأنا أفضّل أن أرمي شهادتي الجامعية في أقرب مزبلة قبل أن أذهب إلى ذلك المشعوذ أو غيره....».

قلت للحسيني:

ها.. ما رأيك بهذه الحكاية؟

قال مبتسماً:

طريقة المعالجة مهينة طبعاً ومتخلّفة، ولكن يا صديقي دعني أقول لك شيئاً، هناك الكثير في هذا العالم ما يزال غامضاً ومجهولاً، وشهادتك الجامعية وشهادتي أيضاً لا تجيب عن كلّ الأسئلة التي قد تواجهنا.. دعنا في هذه المرحلة فقط لا ننكر ما نرى وننفتح على كل الاحتمالات فنحن لا نمتلك الحقيقة المطلقة وكلّ يروي قصته من زاويته، لكن تأكد أنّ ثمّة قوة ما في هذا الكون تمتلك السيناريو كاملاً!

قلت له وقد ازدادت حيرتي:

المشكلة أنهم يدّعون أنّ الشيخ فالح أعاد وضعية فمه إلى طبيعتها، ويكاد فوّاز بك يشفى أيضاً من شلله.... شيء يجنّن فعلاً!

عمّان

(ربيع ١٩٨٨)

مرّ عام تقريباً على حادثة العفاريت كما يحلو لي أن أسمّيها، وتلك الليلة التي كدت أن أموت فيها!

لقد جرت مياه كثيرة تحت الجسر، كما يقال، خلال الفترة المنصرمة؛ إذ تركت البحث عن الكنوز إلى غير رجعة، واقتربت أكثر من الواقع. نسيت رفاق الليل ولم أعد أعرف أين ذهبت بهم الأقدار، وإن كانوا قد استخرجوا كنزهم أم لا!

كانت الدولة قد رضيت عنيّ قليلاً كما يبدو، أو هكذا خيّل إليّ، ونقلتني إلى مدرسة ابتدائية في قرية نائية هذه المرة تدعى «ميسرة» تقع فوق جبال البلقاء المليئة بأحراش السنديان والبلوط، والمطلة على الأغوار، ومرتفعات فلسطين، وقد كانت فرصة عظيمة لتبخر ما تبقى عندي مما درسته عن هندسة الطائرات وأية علوم أخرى، خصوصاً مع تورطي اليومي لأن أشرح لثلاثة صفوف مجمّعة معاً جدول الضرب، والفلزات واللافلزات، وتاريخ

الثورة العربية الكبرى، في الآن نفسه، بل ذهبت محاولاتي أدراج الرياح والمطر أيضاً، وأنا أحاول أن أقنع مدير المدرسة بأنّني لا أفقه بالتاريخ المعاصر ولا حتى بالغابر شيئاً، وقلت له بنوع من الغمز المبطّن إنّه من الأفضل للدولة أن لا تعتمد عليّ لتدريس أبناء البلد مادة التاريخ حتى لا تتسرب أفكاري «المسمومة» إليهم، ولكنّ المدير كان من النوع طويل البال، والقابل أن يمتص أي مشكلة بهدوئه المقيت وعباراته المبتذلة لكثرة تكرارها:

عندنا نقص معلمين يا أستاذ.. ولكن من الممكن أن أتعاطف معك لتدرّسهم التربية الدينية بدل التاريخ.. شو رأيك أكيد حافظها عن غيب من أيام المدرسة..؟

وفي تلك اللحظة بالذات هبط عليّ إلهام عظيم بأن أترك مهنة التعليم إلى الأبد وفي أقرب فرصة، وإلا فإنني سأفني بقية حياتي في «مستشفى الفحيص للأمراض العقلية»..!

كانت علاقتي بالحسيني قد تعمقت، وتكررت زياراتي له، ورغم عقد السنوات الذي يفصل بيننا، فقد أحبّني الرجل ووثق بي كثيراً، وربما رأى فيّ شيئاً لم أدركه..!

كنت شاباً مندفعاً نحو الحياة، ألتهم الكتب التهاماً، وأشارك بصخب في النقاشات، ولكني لم أكن منشغلاً بالسياسة، أو حتى بالدخول إلى عضوية الحزب الشيوعي

الأردني السرّي آنذاك.

كانت طبيعتي الفوضوية تمنعني من الالتزام تحت مظلة أيّ حزب، رغم قناعتي النظرية بالأفكار الماركسية، إضافة إلى أنّ ثمن الحزبية حينها بضع سنوات من السجن، ومن هذه الناحية فقد كان رفاقي السابقون يعدّونني انهزامياً، ويتحدثون بفخر عن مناضلين لم يدرسوا مثلي في قلب الشيوعية العتيد، ولكنّهم دفعوا سنوات طويلة من شبابهم في السجون.

لقد فهمت أخيراً لم كنت قريباً من الحسيني إلى هذه الدرجة، فقد كان الرجل مثلي حرّاً غير متحزب وذا رؤية مغايرة، رغم أنّه خريج البلد نفسها التي درّستنا الجدلية المادية الماركسية والعلوم الحديثة معاً، والتي كانت تشهد أيضاً نقاشاتنا المتواصلة، ونقدنا اللاذع للفكر الغيبي والديانات، بل يمكنني أن اعتبر أن أفكاره الإيمانية أحياناً عن العوالم الخفية، ونظرته الوجودية للكون نوعاً من الرجعية، لكنّ الذي يحيرني فعلاً أنّه كان يتحدث بطمأنينة عجيبة، ودون أي تردد كما لو أنه يعرف تماماً ما يقول بل كأنه اختبره شخصياً، غير أنّ طيبة معدنة، وحسن معشره، وانفتاحه على العالم، وثقافته العميقة، جعلت من وصمه بالرجعية - تلك التهمة الجاهزة - أمراً غير منصف..!

كان خلف الرجل سرٌّ ما لم أعرف تفاصيله بعد، ولكنّ نقاشاتنا الطويلة أفصحت لي عن جانب منه، وهو اهتمامه بالبحث عن الأكوان الأخرى غير أني لم أفهم الكثير، ذلك أنّ خبراتي كانت متواضعة قياساً لما لديه في مثل هذه الموضوعات، ولم يكن الأمر يستهويني أساساً..!

قال لي مرة:

هل لديك تفسير لما حدث معك تلك الليلة في عجلون أو حينما وجدتك؟

قلت له:

وهل هناك تفسير لمثل هذه الأشياء؟

من المؤكد أنني كنت واقعاً ضحية الأوهام والوساوس وآثار الشراب...!

قال مبتسماً:

ولكنّك قلت لي إنّك رأيت الأشياء رأي العين وليس توهماً؟

قلت حائراً:

هذا هو الشيء الوحيد المتأكد منه والذي يربكني، ثم إنّ ذلك الرجل الغريب الذي ظهر لي لأول وهلة قبل وصولك وأنقذني كان يبدو حقيقياً أيضاً، ولن أنسى صورته

أبداً فقد بدا لي مثل شيخ وقور بلحية كثّة، وابتسامة منيرة، لكني أريد أن أسألك هل تؤمن حقاً بأنّ هنالك عالما آخر من حولنا لا نراه؟

أجاب:

وهل تعتقد أننا وحيدون في هذا الكون الشاسع؟

قلت بنوع من السخرية الجلية:

لكن العلم لم يكتشف شيئاً من ذلك.. لقد وصل البشر إلى القمر، وطاروا فوق السحب، وصوّروا الكواكب وغاصوا في المحيطات أين هي تلك العوالم يا رجل؟

قال صابراً على إنكاري:

العلم قاصر أو لنقل إنه مضلّل يا صديقي، ثمة من يريد لنا أن لا نعرف كلّ الحقائق لا في السياسة ولا في العلوم ولا حتى في الجغرافيا ناهيك عن التاريخ.، وليس كلّ ما لا نراه يعني أنه غير موجود، ألم تدرس الموجات الصوتية والضوئية والترددات التي تحيط بنا هل نراها؟ وهل يعني ذلك أنها غير موجودة..؟

كانت النقاشات مع الحسيني تثير فضولي وتحمسني للبحث، لكنّها دائما تنتهي عند طريق مسدود؛ إذ كنت أنكص إلى شرنقتي معتمداً على المعارف التي درستها والقناعات التي كانت تقودني إلى الطمأنينة، غير أنّ كلام

الرجل كـان يـرنّ فـي أعـمـاقـي ويوقظنـي بين الحين والآخـر لأغـيّـر على الأقل تلك الـطريقـة التـي أفكر بهـا نـحـو هذا العالم، وليزلزل ولو قليلاً من توازني الهش..!

السلط - وادي شعيب

(نيسان ١٩٨٨)

دعوت الحسيني ليزورني في السلط ليشهد ربيعها الرائع ويتعرف على تفاصيلها.

كان مندهشاً من معمارها، وتلك البيوت المعلقة فوق سفوح الجبال بطريقة بدت له عجيبة.

قال لي:

أتخيل أنّ الناس يمكنهم أن يمسكوا برؤوس المآذن أو ربما يدقوا أجراس الكنائس من شرفاتهم..!

قال إنّ الأردن فيه سكينة عجيبة لمن يزوره، شعور ينعش الروح لا يعرفه إلا من يجرّبه، وأحسست بأنه يجاملني، لكنه تابع: أنا أقصد ما أقول وعلى كل حال يكفي أنّ هناك العديد من الأنبياء عاشوا في هذه البلاد.. وعرفت كلّ الحضارات القديمة أيضاً، ثم انظر لتلك العلاقة الجميلة التي تجمع الديانتين معا بكلّ سلام، وأشار إلى كنيسة وجامع في «حي الخضر» في حالة عناق معماري

ليس له مثيل..!

قلت له مضيفاً:

لمعلوماتك فقد جاء بعض الرحالة إلى هذه المدينة قبل نحو قرنين، وقالوا إنّهم لم يكونوا قادرين على التمييز بين المسيحيين والمسلمين، لما هم عليه من الوئام والانسجام، وهذا الأمر الجميل ما يزال إلى اليوم..!

انتبهت ونحن نهبط باتجاه وادي شعيب، ونتفيأ ظلال شجره الباسق إلى أنّ وجه الحسيني كان على غير ما يرام، بدا لونه شاحباً، فيما شعرت ببطء غير معهود في حركته ونشاطه، وحين ألححت عليه بالسؤال أخبرني أنّه يشعر بالهزال وأن مرضاً ما يداهمه..!

وقال محاولاً طمأنتي:

لا تقلق ثمة حالة أمرّ بها، وسأخبرك بنتائج الفحوص في المرة القادمة..!

وقلت له محاولاً التخفيف من الأمر وتحويل وجهة الحديث:

أكيد عارض بسيط وستتجاوزه قريباً، ولكن يا صديقي أحياناً أحس بك غامضاً وثمة قصة ما تختبىء خلفك، وأنا أتساءل في أعماقي عمّ فعلت طيلة سنوات حياتك التي مرّت..؟؟

ثم لماذا لم تذهب إلى السعودية أو دولة خليجية مثلاً لتعمل فيها، فالأردن ليس هو المكان الأجدى لك من الناحية المادية على الأقل؟

وقال فيما يشبه إغلاق الموضوع بسلاسة:

تلك حكاية طويلة ستعرفها يوماً ما، أنا متأكد من ذلك، لكن لا تذهب في تخميناتك بعيداً «يا راجل...!» فأنا حقاً أحبّ هذه البلاد وقد اخترتها طواعيةً لا كرهاً، والفلوس هي آخر ما أفكر به في هذه الدنيا، على كلّ حال من الضروري أن نلتقي في أقرب وقت عندي فثمّة أشياء كثيرة أريد أن أطلعك عليها..!

عمّان
(صيف ١٩٨٨)

أفكر بالحمل الثقيل الذي ألقاه الحسيني على عاتقي ومضى!

منذ ثلاثة أشهر تكثّفت اللقاءات بيننا، مستغلاً شطراً من العطلة المدرسية الصيفية، وخلال كلّ تلك الأيام والساعات كنت أحسّ بأنّ هذا الرجل يتسرب من بين يدي هذا العالم بكلّ بطء، ودون أيّ قدرة لي على إنقاذه. كان واضحاً أنّ هزاله المرضي يستفحل، وعرفت منه أنه مصاب بقصور في القلب، مشاكل ما في الصمامات شرح لي عنها بالتفصيل كطبيب محترف، وقال إنّه يعالجها بالأقراص والمهدئات، ريثما يجري عملية جراحية، وعجبت لأنّ هذا الرجل الشفاف الرقيق قد أصيب في مكمن المشاعر والأحاسيس التي يفيض منه على هذا العالم.

لقد قرر أخيراً أن يعود إلى القاهرة، وما أزال أذكر لقاءنا قبل أسبوع من سفره حينما قال لي كما لو كان يشجعني على الصبر:

أفضّل أن أقضي بقية أيامي بين أهلي، وثمّة دائماً أمل في نجاح العملية أيضاً، وفي النهاية فإنّ الحياة رحلة ستنتهي آجلاً أم عاجلاً..ولكننا سنلتقي مرّة أخرى فلا تقلق!

كنت مصدوماً مما آل إليه وضعه، ولسفره الذي قد لا يعود منه، ولم أعلق كثيراً على جملته الأخيرة التي وعدني فيها باللقاء، ثمّة أشياء كثيرة ننطقها أحياناً كنوع من المجاملة، وقد كان الرجل بحاجة إلى من يشجعه لا أن ينقلب الأمر ويبدأ هو بالتخفيف عني..!

ها أنذا أجلس مثقلاً بكلّ الحكايات الغريبة التي رواها لي فخلال شهرنا الأخير عرفت عن حياته أشياء تبدو لي ضرباً من الخيال، ولا تنتمي أبداً لأي واقع خبرته.

❖❖

ذات ليلة جلس أمامي ونظر في عينيّ مباشرة وقال:

هل أنت جاهز لتسمع حكايتي أو على الأصح جزءاً يسيراً منها؟

وأضاف:

قد تبدو لك قصةً سينمائيةً، أو فصلاً من رواية خيالية، والأمر لك في تقبلها كيفما تشاء. لست معنياً بأن أقنعك بصدقها، ومعك حق إن أنكرتها، صدقني أنا أتفهم

ذلك، ولكن سـأكشف لك عن بعض جوانبـها، أمّا الجـوانب الأخرى فستجدها في هذه الحقيبة - وأشار إلى حقيبة جلدية سوداء قربه بدت منتفخة قليلاً ومغلقة على ما فيها- وبقية الحكاية عليك أن تكتشفها وحدك ذات يوم فثمة طريق طويل عليك أن تسلكه إن رغبت أو تتركه..

وتابع:

لدي شرط قبل أن أبدأ حكايتي أن تعاهدني أن لا تفتح هذه الحقيبة إلا بعد تأكدك من رحيلي عن هذا العالم...!

صمتّ طويلاً، وبدأت أتمتم بطريقة مرتبكة لأن يبتعد عن التفكير بالموت، ثم لماذا يحمّلني هذه المسؤولية دون غيري...!

قال لي إنّه يمكنني أن أنسى أمر الحقيبة إن كنت غير راغب بالاحتفاظ بها، لكنه يعتبرني أخاً له، ويتوسم فيّ الخير، وأنني يمكن أن أطلع على محتوياتها حينما يأتي أوان ذلك، ثم إنه قد يعود إلى عمان ذات يوم قريب وأعيدها له.. هي فقط نوع من الأمانة في عهدتي..!

قلت له:

ستكون عندي في الحفظ والصون فلا تقلق، وهي بانتظارك حينما تعود إلينا عما قريب..!

قال لي مضيفاً بنوع من الودّ السلس:

عظيم ولكن لم تقل لي ما هو أقدس شيء لك في هذا العالم حتى تحلف به.. قلت لك أريد عهداً!

ضحكت حينها وقلت له:

أنت تعرف بأنني إن حلفت لك بالله لن تصدقني لأنك تعرف بأنني لا أؤمن بوجوده....، ولكنّي أقول لك إنّ أمي تبدو لي الحقيقة الوحيدة التي يمكن أن أرتكز إليها في هذا العالم، فاطمئن بأنّ هذا العهد لن ينكث!

لم أكن أعرف حينها إن كنت متشائماً أو متفائلاً، فكلّ الاحتمالات قد تحدث، ولكنني أرغب بأن أظلّ أنفخ في شعلة الأمل التي في أعماقي كي لا تنطفئ جذوتها ولو تطلب الأمر سنين كثيرة.

كنت أرى في الرجل أخي الأوحد الذي لم تلده أمي، رغم أني لم أعش مدّة طويلة برفقته، فقد كنت الذكر الوحيد القادم بعد أربع شقيقات، وأحاطتني أمّي بكلّ الحنان الذي من الممكن أن أتخيل وجوده في هذا الكون، وكان أبي يغمرني أيضاً بنوع من الحبّ، ولكنّه بدا لي غائباً وقصياً أغلب الوقت، وقد خلط عواطفه بشيء من القسوة خوفاً من إفسادي بالدلال الزائد كما كان يقول لأمّي، وكانت هي من النوع الذي يمكن أن يضحّي بنفسه، وبكل ما يملك على أن لا أصاب بأيّ سوء!

كنت أحس أحيـاناً بأنني لم أغـادرها بعـد وأنّ الحـبل السري لم ينقطع بيننا أبداً.

وها أنا ذا أحلف بوجهها الوضّاء، وفيض حنانها الغامر أمام الحسيني أخي الأكبـر، وأستـاذي أيضاً، الذي تعلّمت منه الكثيـر من غيـر ضجيج بأن أحفظ العهد الذي بيننا، وها هو يفـيض عليّ من حكاياته التي تبـدو لي ضـرباً من الخيـال، تغيم أحيـاناً وكأنّه ناقلها لا صاحبها، وتبدو لي أحياناً أخرى جليةً ومشرقةً بكلّ البهاء:

«كان أبي يعمل في مصلحة الآثار المصرية مفتشاً ومرافقاً للبعثات الاستكشافية، وكان يأخذني معه كلما سنحت الفرصة، لاسيما خلال العطل المدرسية الصيفية.

حدثني طويلاً عن الأهرامات وأسرارها، وتلك المعابد الضخمة التي تنتشر في أرجاء مصر، فقد كان خبيراً بها وعاشقاً لها، ويعرف تفاصيلها وتاريخ أحداثها، كما لو عاش فيها حيوات عديدة...!

أذكر أنّ انشغالاته خلال بداية الستينيات كانت مختلفة قليلاً؛ إذ تمّ اختياره لمرافقة بعثة من علماء الآثار الروس جاؤوا لدراسة الحضارة المصرية القديمة. كان الرئيس جمال عبد الناصر خلال تلك الفترة من المعجبين - كما فهمت لاحقاً- بالسوفييت والتقرب إليهم، والاستفادة من خبراتهم واستشاراتهم في الجيش والتصنيع والعلوم

وغيـرها، وكان وجودهـم قـد تكثف في قطاعات كثيـرة في مصر، ومن بينها عمليات استكشاف الآثار وترميمها، وقد توثقت علاقة والدي بواحد من أبرزهم، ويدعى سيرجي؛ إذ كان يرافقه ونحو عشرين من بعثته بشكل شبه يومي، وقد أسهم سيرجي فيما بعد بتدبير بعثة دراسية لي في جامعة لينينغراد على حساب الاتحاد السوفييتي لدراسة الطب بعد أن أكملت الثانوية العامة، وقد نقل إليّ والدي حبه للآثار والتفكر بما خلفته لنا الحضارات من الضخامة والدقة معاً، أقصد ضخامة المباني والمعابد، والدقّة في الحسابات المعمارية والفلكية...إضافة طبعاً إلى العلوم والتطور الهائل في الطب، والزراعة والفنون وشتّى مظاهر الحضارة..!

خلال منتصف الستينيات تقريباً عادت بعثة العلماء السوفييت إلى بلادها في الوقت الذي كنت ما أزال فيه طالباً غضّاً في المدرسة، وفيما بعد حينما انتقلت للدراسة في روسيا توثقت علاقتي مع سيرجي، فقد كنت أزوره في بيته بموسكو خلال العطل الجامعية، وكلما سنحت الفرصة، وكان الرجل يعاملني بودّ كبير إكراماً لصداقته مع والدي، كما أحسست بقيمته العلمية ووضعه الحزبي البارز، فقد كان متنفذاً جداً في الدولة كما بدا لي، وقد مرت سنوات طويلة قبل أن أكتشف أنّ الرجل ورفاقه الذين كانوا في مصر هم بعثة من «الأكاديمية العلمية السوفييتية» وفيهم علماء الكيمياء والآثار والاتصالات والتاريخ والماورائيات من

ذوي الخبرات العالية، حيث كوّنت المخابرات الروسية «كي جي بي» منهم بطريقة خفية فريقاً للذهاب إلى مصر بهدف اكتشاف حضارتها القديمة وعلومها التي تجلت في عصر الفراعنة، ومعرفة مصدر قوتها، وكيف استطاعت بناء الأهرامات الضخمة، وكان الهدف من ذلك كما فهمت توفير معلومات موثوقة يمكن أن تفيد الاتحاد السوفيتي في حربها ضدّ الولايات المتحدة الأميركية بصورة أساسية، وعملاء الامبريالية في كل مكان، إضافة إلى سيطرتها على العالم لنشر مبادئ الثورة الشيوعية.

تلك أمور لم أكن أعرفها من قبل، فكلّ ما كان ظاهراً لنا أنهم علماء آثار، وأساتذة جامعات جاءوا ينقّبون ويحفرون في مواقع معينة، ليساعدوا بلدنا على اكتشاف حضارته القديمة، ولم يكن والدي يعرف اللغة الروسية أساساً ليفهم مقاصدهم، إضافة إلى أنّ الدولة في أرفع مستوياتها كانت تطلب تسهيل أعمالهم، ففي النهاية كانوا يروجون عنهم أنّهم (أصدقاء مصر وحلفاؤها، وهم الذين يقفون في خندقها ضد أعداء الأمة إسرائيل والإمبريالية الأميركية وقت الشدّة..).!

❖❖

وثق بي سيرجي وقربني إليه، ومنه تعلمت الكثير عن المخفي من هذا الكون، وما لم أكن أتوقعه، وفي الحقيقة لم

أحسّ للحظة ما أنّ هذا الرجل يريد أن يضرّ بلادي في شيء، بل على العكس تماماً فكل تقدم للعلوم ينجزه سيرجي ورفاقه سيفيد البشرية جمعاء، ثم إنني أدين لروسيا وأهلها والرفاق في الحزب الشيوعي بست سنوات من دراسة الطب هناك، والعمل لثلاث سنوات بعدها، وهي من أجمل فترات حياتي!

أعلمني الرجل بأنهم اكتشفوا أسراراً خطيرة عن الحضارة الفرعونية، وفي الوقت الذي كانت مقاصدهم في البداية ذات طابع أمني وسياسي، فقد وقعوا تحت سحر كنوز الفراعنة المعرفية لاحقاً، بما لا يصلح أن يوظفوها لأيّ جهة أو من أجل تدمير هذا العالم، كما قال لي سيرجي ذات مساء وهو يقودني إلى ركن خاصّ من بيته ليريني بعض الصور والأفلام التي قام وفريقه بتصويرها في عدد من المقابر والمعابد التي تمّ فتحها في مصر، وجلس يحدثني طويلاً عن خلاصة ما توصل ورفاقه إليه بعد رجوعهم من هناك بعدة سنوات:

« ... الحضارات البشرية يا أحمد مرّت بفترات تطور عالية المستوى، لا تصدق أننا الآن في القرن العشرين قد تجاوزنا أجدادنا وتفوقنا عليهم في العلوم والتقنيات..! ثمة أشياء كثيرة عرفناها على أساس أنها حقائق لا تناقش، ولكن هناك الكثير من الكذب والتزوير الذي طال تاريخ

البشر على هذه الأرض، فالحضارة المصرية كانت متطورة جداً في علوم شتّى، ونحن مثلاً لا نعرف إلى اليوم سرّ التحنيط، ولا من أين أتى الفراعنة بقدراتهم المذهلة في الحسابات الفلكية أو الطب، ناهيك عن العمران الهائل والدقيق جداً.

كلّ النظريات التي قيلت عن بناء الأهرامات تخمينات فقط لا تأكيد لها، لكن في النهاية أقول لك بأنّي توصلت إلى إنّ الحضارة المصرية هي وريثة لحضارة متطورة جداً كانت على هذه الأرض في قارة أطلنطس...!

الكثيرون يظنّون الأمر خرافة فحسب عن قارة غارقة، ولكن أنا أؤمن بأنّها كانت موجودة يوماً ما، وكان أهلها يتصفون بنوع من الحكمة ويعيشون بسلام، ولديهم علوم متقدمة في شتّى المجالات، لقد اتصلوا أيضاً بالكواكب الأخرى في مجرتنا، وعرفوا سرّ المادة والطاقة مبكراً، لكن حدثت كارثة على الأرض لا نعرف تفاصيلها ولا كيف تمّت، ولكن من المؤكد أنها تسببت بطوفان كبير وزلازل وحرائق خلال الفترة الواقعة قبل الميلاد بعشرة آلاف سنة تقريباً في بعض قارات الأرض ومنها «اطلنطس» التي غرقت، أما القلة الذين نجوا منها وهم من كبار علمائها وحكمائها فقد تفرقوا في الأرض الجديدة لمحاولة بناء حضارتها من جديد معتمدين على ما تبقى من علومهم.

قسم منهم ذهب إلى أمريكا الجنوبية وأسسوا حضارة المايا العظيمة، وبعضهم جاء إلى مصر، وبنو أهراماتها وكلّ ما يتعلق بحضارة الفراعنة التي لا نعرف غير جزء يسير عنها، ويقال إن قسماً آخر ذهب إلى جنوب العراق وأسّس الحضارة السومرية...».

اندهشت كثيراً لكلام سيرجي، فتلك رؤية لم أقرأ عنها من قبل لا في كتب التاريخ ولا في الآثار، وقبل أن أعبّر له عن دهشتي طلب مني أن أسمع الحكاية حتى النهاية وتابع قائلاً:

«..... احتفظ بعض ملوك الفراعنة وكهنتها بالأسرار خوفاً من تسرّبها إلى أعدائهم، وظلت حكراً على مجموعة صغيرة تتناقلها جيلاً بعد جيل، ولا يسمح لغير الخاصّة منهم بالوصول إليها، وكان هؤلاء على اتصال مع حضارات أخرى من كواكب مأهولة قريبة من الأرض مثلما فعل أجدادهم الأطلنطيون، واكتشفوا طريقة لنقل جانب من علومهم ومعرفتهم بالكون إلى مصر، وكانت المايا أيضاً على تواصل مع تلك الحضارات، وبنوا أهراماتهم على نقاط محددة للطاقة على الأرض تسهل أمر اتصالهم بها، ولمعلوماتك فقد أنجزوا الأهرامات بتكنولوجيا متطوّرة ليست لدينا إلى الآن، فلا توجد رافعة على وجه الأرض اليوم تستطيع رفع حجر من حجارة الأهرامات وتقوم

بوضعه بدقة متناهية في مكانه، ولا تنس أنّ هناك مدناً بالكامل مبنية فوق جبال الأنديز مثل «مدينة الشمس المقدسة» لا يمكن لأي تقنية في عالمنا الذي نعرفه اليوم أن تنجزها بتلك التفاصيل والضخامة، أو تستطيع أن ترفع حجارتها إلى ذلك العلو الشاهق!

كما أن هناك رسومات لرجال ببزات فضائية في مركبات غريبة وصحون طائرة منقوشة على بوابة الشمس في البيرو، وأيضا في معبد أبيدوس عندكم في مصر، وعلى بعض الآثار السومرية فهل لديك تفسير لكلّ لذلك؟

حتى أولئك القدماء الذين عاشوا هناك كانوا يظنون أنّ ملوكهم أنصاف آلهة لعجزهم عن معرفة علومهم، أو معرفتهم بأنهم يتّصلون مع قوى من خارج الأرض، وبالنسبة للناس البسطاء فإنّ قصارى تخيلهم يذهب إلى آلهة في الكواكب أو تعيش في السماء، وما هم في الحقيقة إلا كائنات من حضارات متطورة تعيش هناك!

أنت تعرف بأنّ المبادئ التي تربينا عليها لا تنسجم مع فكرة وجود إله يجلس فوق الغيوم وحوله ملائكة وشياطين، وما إلى ذلك من الخرافات، وذلك الأفيون المخدر للشعوب الذي تروج له الديانات، وها أنا ذا أقول لك إنّ الموضوع يتعلق بحضارات أخرى أكثر تطوراً، وهذا هو السرّ الذي لم تدركه البشرية، تصور مثلاً لو أنّ كائناً فضائياً هبط

بمركبته في إحدى قرى مصر قبل خمسة آلاف سنة ماذا سيفعل الناس حينها ؟

البعض سيهرب خوفاً وآخرون سيسجدون له ويسبحون بحمده، ويجعلونه إلهاً عليهم!

أعرف أنك ستقول لي بأنّ الآلاف من أبناء مصر دفعوا حياتهم ثمناً لبناء الأهرامات عبر سنوات طويلة، تلك حكاية مألوفة وتتداولها الكتب ويروّج لها علماء الآثار، وحتى أكون واضحاً في هذه المسألة أريد أن أقول لك بأنني لا أنكر جهد المصريين في بناء الأهرامات، بيد أني أعتقد بأنهم استخدموا تكنولوجيا متطورة ساعدتهم على بنائها، فهل تقول لي إذا كان بالإمكان أن يبني المصريون اليوم مثل هرم خوفو، بدقته وضخامته وأسراره الفلكية نفسها، مستخدمين كلّ العلوم والإمكانيات المتوفرة في العالم وليس في مصر وحدها..؟؟

أبداً لن يستطيعوا صنعه!

إذن ما تفسير أن أجدادهم قبل أكثر من عشرة آلاف سنة على الأقل شيدوا كلّ تلك الحضارة ؟».

❖❖

بدت لي أقوال سيرجي غريبة، ومثيرة للدهشة حينها، ولكنّه أزال شكوكي وهو يريني فيلماً له ولفريقه وهم

يفتحون قبراً أطلقوا عليه اسم «الزائر» كان مخصصاً على ما يبدو لواحد من أولئك الذين زاروا الأرض من أبناء الحضارات الأخرى.

لقد وجدوا في التابوت كائناً على هيئة رجل لكنه برأس أكبر وأطول قليلاً بعيون مائلة وفم صغير وجسم نحيل، وبملامح تشبه الكائنات التي نراها في أفلام الخيال العلمي، وقال لي حينها إنه يعتقد أنه قبر «أوزوريس» الذي جاء في بعثة من كوكب آخر يتبع برج الجوزاء لنشر العلوم والحكمة في الأرض، وشرح لي سيرجي أنّ احتمال وجود حضارات أخرى خارج الأرض مسألة محسومة بالنسبة له، لكن من الصعب نشرها على الناس، وليس كلّ ما يعلم يقال، وأشار مثلاً إلى أنّ هناك الكثير من التطور العلمي اليوم لم يتعرف عليه البشر بعد، وهو محصور في فئة قليلة من النخب الحاكمة وبعض أجهزة الأمن وكبار الكهنة ورجال الدين في بعض الشعوب، ومحفوظ بشكل سرّي بحيث لا يطلع عليه أحد من العامة.

❖❖

فيما بعد ترسخت دعائم علاقتي بسيرجي ورفاقه، ووثقوا بي كثيراً فقد كنت رفيقاً لهم في الحزب، ومخلصاً للمبادئ الشيوعية التي تجمعنا معاً، إضافة إلى أنهم يعرفونني منذ كنت صغيراً أيام وجودهم في مصر، وهم

يحتفظون بذكرى طيبة عن والدي، ولم يكن ثمة مجال للتراجع أصلاً بعد كل ما عرفته؛ إذ هم يعدونني واحداً منهم رغم صغر سنّي مقارنة بهم.

قال لي سيرجي ذات يوم بأنّهم عثروا عبر أجهزة الكشف المتطورة بأشعة اكس التي كانت بحوزتهم على ما يشبه المركبة المعدنية الضخمة على شكل قرص كبير مدفونة على بعد أمتار تحت قبر الزائر.

كانت بالنسبة لهم مركبة أو آلة ما تعود لهذا الفرعون غير البشري، وأنه دار نقاش طويل بينهم بشأن ماذا يفعلون بها، وقد تمخّض الأمر عن تركها مكانها وعدم فتحها خوفاً من أن تكون مثل حصان طروادة لا أحد يعرف ما بداخلها من الشرور أو الأسرار التي من الممكن أن تدمر الأرض أو تنبه إليها الحضارات الأخرى لغزوها من جديد!

لكنهم في الحقيقة اكتشفوا أسرارًا كثيرةً سواء في مصر أو في مناطق أخرى من العالم بعد تواصل بحوثهم في هذه الاتجاهات؛ إذ كانت بعثاتهم العلمية، ذات الطابع السري جداً، قد وصلت عدداً من الدول في أميركا اللاتينية، وشرق أسيا، والصين، وحتى المحيط المتجمد الشمالي، وقد علمت من سيرجي أنّ هناك كواكب مأهولة يمكن التواصل معها، وأنهم يتسابقون مع الأمريكان لمعرفة تلك التكنولوجيا المذهلة التي يمتلكونها وكيفية الاستحواذ

عليـها أو تقليـدها، كـما أن عـدداً كبيـراً من العلمـاء الألمان لجـأوا إلـى الاتحـاد السـوفيـتي بعـد سـقـوط برلـين خـلال الحـرب العالميـة الثانيـة، وبعضـهم لديه معلومات خطيـرة عن تطـوير أطبـاق طائـرة سـريعـة جـداً كـان هتلر على وشك التوصل إلى تقنياتها وتوظيفها في مقاصده الحربية!

وقال لي أيضاً:

هناك عـدد هائل من الأشـخـاص حـول العـالم يقـدرون بالملايين الذين سُـجلت مـشـاهدات لهم خـلال هذا القـرن لأطبـاق طائرة أو مـركبـات غـريبـة في السـمـاء، ولا يمكن أن يكونوا كلهم كاذبين أو متوهمين..!

ابنة الثلوج والموسيقى

توّجت علاقتي بسيرجي بالزواج من ابنته «أولغا» التي توثقت معرفتي بها من من كثرة ترددي على بيتهم الذي يزخر بالكتب والمقتنيات الأثرية والأبحاث والأفلام والصور والنقاشات عن كل ما يتعلق بمصر، وكأنه مركز بحوث مصغر، وكنت بالنسبة لعائلة سيرجي ممثلاً لحضارة ضاربة في القدم والأصالة، وواحداً من أفرادها أشاركهم في أفكارهم وأسرارهم!

كانت أولغا غايةً في الرّقة والجمال، وعشت برفقتها واحدة من أجمل الفترات في حياتي بعد تخرجي، ولكنها لم تكن تشاركني مثل والدها في تلك الأسرار أو الاهتمامات التاريخية والآثارية، بل كانت منشغلة تماماً بالجمال الذي على هذه الأرض عبر عشق الموسيقى وقراءة الأدب ومشاهدة الأفلام، وكنت أبدو أمامها أحياناً مثل قزم صغير وهي تحدثني عن آخر الروايات التي قرأتها، والمقطوعات التي سمعتها!

كانت تتقن العزف على البيانو والفلوت، وتجعل من

شتاء موسكو البارد الطويل دفئاً جميلاً لي ولأهلها.

وجاء يوم قررت فيه أن أعود إلى مصر، فقد اشتدّ مرض والدي، وكنت أشعر في أعماقي بتأنيب الضمير، إذ إنني أنعم هناك بالحياة الأجمل، ولم أوظّف خبراتي بوصفي طبيباً لخدمة أبناء بلدي أو «طبقة البروليتاريا» المعدمة التي كنت أدافع عنها نظرياً، بل إنّ والدي يكاد يموت وأنا لم أفعل له شيئاً يمكن أن ينقذه، وهكذا عدت وحيداً وتركت أولغا هناك!

ودعتها على أمل أن أعود إليها قريباً أو تأتي هي وتلتحق بي في مصر لزيارتها والتعرف على أهلي..!

وقد شعرت بأنني وصلت متأخراً، فقد كان والدي في حالة لا يستطيع معها النطق، ولم نتبادل معاً سوى لغة العيون الدامعة، ومات بعد أيام قليلة من قدومي، وهكذا ترسخت عندي عقدة الذنب تجاهه، فقد أحسست بأنني أهدرت سنوات من عمري كان يمكن أن أكون فيها إلى جانبه، وأسهم في تأجيل رحيله!

بقيت عدة أشهر هناك سنداً للعائلة ولو بصورة معنوية، وحين جاء أوان عودتي إلى روسيا مجدداً حصل شيء لم يكن بالحسبان، فقد حجز رجال «أمن الدولة» جواز سفري وجرى منعي من مغادرة مصر، وأخضعت لتحقيقات مطولة عن علاقتي بالحزب الشيوعي، ونشاطاتي، وحمدت الله أنّ

معلوماتهم كانت سطحية عن حياتي هناك، وأنهم لم يعرفوا حقيقة علاقتي بسيرجي ورفاقه، فأنا بالكاد كنت أختلط بالمصريين أو حتى بالعرب طيلة إقامتي وعملي بعد التخرج.

بعد نحو عام جاءت أولغا لزيارتي في مصر إذ كادت أن تفقد الأمل برجوعي القريب، وربما أيضاً من أجل تشجيعي على العودة من جديد إلى روسيا، وقد كنت في أشد الحاجة لتلك الخطوة، غير أني لم أكن قد أوضحت في رسائلي إليها معاناتي هنا، ولا عن إمكانية أن أبقى إلى جوار عائلتي والاهتمام بها بعد رحيل والدي ولو قليلاً، أو العمل هنا أيضاً، أمّا مسألة الجانب الأمني فقد أسهمت في تعقيد الأمور بطريقة ليست في الحسبان!

وفي النهاية عاشت أولغا معي سنة بائسة، وتحملت صعوبات هائلة من التكيّف مع حرّ الشمس والظروف الجوية التي لم تعتد عليها من قبل، واختلاف اللغة، والعادات، ناهيك عن ظروفي العملية والمالية المثيرة للشفقة، فأنا بالكاد كنت أتدبر أموري المعيشية، وأخيراً فإنّ عائلتي لم تتقبل أولغا الشقراء مطلقاً أو «بنت الخواجات» كما كانوا يحبون أن يدعونها استهزاء..!

كانت تعيش تحت وطأة مؤامرات يومية تحاك لها من بعض أخواتي وخالاتي تحديداً؛ إذ لم يحتملن فكرة أن أتزوج من امرأة غير مصرية أو عربية أو مسلمة كما بدا

لي، أما أمي فقد كانت على الأقل تعدّها امرأة غريبة تريد أن تختطف ابنها إلى بلاد الثلج والبرد من جديد بعد أن أبقتني هناك بعيداً عنها سنوات عدة!

وقد استطاعت تلك الظروف مجتمعة تبخير أية مشاعر حب بيننا، وأنا لا ألوم أولغا وقد جاءت تقول لي ذات يوم فيما يشبه القرار المصيري:

أحمد لم أعد أستطيع الاحتمال.. أريد أن أعود إلى بلادي فإذا كنت تريدني حقاً عليك أن تذهب معي الآن أو تلتحق بي قريباً... صدقني فقدت القدرة على البقاء في هذا الجحيم الذي يبدو أنه لن ينتهي!

ولم أكن قادراً على تغيير شيء من ذلك الجحيم الذي وصفته أولغا، ولا حتى باللحاق بها هناك في تلك الفترة. أحسست أنّ مساراً جديداً يتشكّل لكلينا، وكان عليّ أن أعيش أحزاني الخاصة برحليها الذي طال، وبظروفي التي تشابكت وتعقدت أكثر!

عشت بضع سنوات أخرى في بلدي، مثقلاً بالمعارف التي جئت بها من هناك، وباحثاً عن يقين ما أستند إليه في هذا العالم؛ إذ كان رحيل أولغا قد ثقب قلبي وجعله هشّاً تذروه الرياح، وثمّة أشياء كثيرة قد حدثت ليس مقام البوح بها هنا، ربما أحكي لك عنها ذات يوم قريب، أو تجد ما يشير إليها في هذه الحقيبة، والمهم في النهاية أنني جئت

إلى الأردن، وها أنذا أغادرها مستسلماً لتلك التدابير التي تحاك بدقة في جهة ما من هذا الكون، تحت يد عليم قدير!

جبل اللويبدة مجدداً
(بعد ١٠ سنوات)

شيء ما قادني لأصعد «درج الكلحة» مجدداً باتجاه جبل اللويبدة ذات مساء بعيد، وأمرّ من جانب البيت الذي كان يسكن فيه الحسيني.

لا شيء تغيّر في تلك المنطقة، فقط بعض التحديثات وعوامل القدم معاً، بوابة البيت تبدلت، والجدران الحجرية أصبحت باهتةً من كثرة تعاقب الفصول عليها. تسلقت نبتة «مدّيدة» المدخل وما حوله بكثافة.

من المؤكد أنّ كثيرين تناوبوا على السكن في هذه الشقة الصغيرة عبر السنوات الماضية.

ترى لو طرقت الباب الآن هل يطلّ عليّ الحسيني من جديد مرحباً بطريقته الودودة:

«فينك يا راجل... وحشتنا»

تلك أوهام أتمنى أن تتحقق ولو مرة..!

الناس هنا خليط من أهل البلاد، والوافدين إليها،

والسياح الذي يعجبهم صعود الدرجات باتجاه «دارة الفنون» وبيوت اللويبدة الحجرية القديمة، ومشاهدة جبل القلعة بكل بهائه من هناك، أو الإطلالة على شارع السلط من عل وهو يفيض بالمشاة والسيارات وإيقاع الحياة الصاخب..!

هل حقاً مرّت نحو عشر سنوات على غيابه..؟

وهل سيعود يوما لنلتقي كما وعدني..أم كان يقصد لقاءً من نوع آخر..؟

وهل كان هنا أصلاً...؟

لكأنّ القصة كلها من نسج خيالي المتعب، وجرت في نوم عميق.. ولكن كيف وحقيبته الجلدية السوداء ما تزال بحوزتي تلحّ عليّ كلّ حين لأفتحها..!

كنت أشعر أحياناً كما لو أنها تطلق فحيحاً خافتاً بين الحين والآخر، يطاردني في المنام داعيةً إياي لهتك أسرارها، فأتذكر العهد الذي بيننا!

كلّ شيء من حولي تغيّر بسرعة، حتى داخلي طالته التقلبات، يقال إنّ خلايا الجسد والدم تتغير تماماً كلّ فترة معينة، حتى أكاد أشعر اليوم بأنّني لست ذلك الشاب الثلاثيني الذي كنته قبل عقد من الزمان، والذي أطلق ساقيه للريح، هارباً ذات ليلة من كائنات مجهولة تطارده!

عشر سنوات طويلات.. يا إلهي.

حـدثت انقـلابات كـثيـرة فـي داخلي ومـن حـولـي وفي العالم أيضاً.

كأنّ الثابت الوحيد في هذا الكون هو التبدل!

انهـارت المنظومـة الاشـتـراكيـة مـثل حبّـات المسبـحـة، وتراجعت الشيـوعيـة في وكرها العـتيـد، وصـارت تلعن ليل نهـار من أولئك الذين كـانوا يسبّحون بحمدها بكرةً وعشياً، وتحـول مـعظم الـرفـاق الأشـاوس إلـى انتـهـازيين يروجـون للرأسمالية!

ضُربت العـراق من كل جـانـب حتى تشتت أبناؤها في كلّ الأقطار يطلبـون الأمـان، وصـارت إسـرائيل بين ليلة وضحاها دولةً صديقة تجمعنا معها اتفاقيات سلام وسفارة يرفـرف علمـهـا أمـام مـئـات الآلاف من أبناء فلسطين المهجـرين، الذين عـاد مـا تبقى من ثوارهم المكتهلين إلى مـا تبقى من بلاد مقطعة الأوصال!

ارتفعت وتيرة التقوى المفاجئة بين جماهير الناس، وزاد عدد المصلين في المساجد، وتحجّبت نساء كثيـرات، واشتدت قـوى الحـركـات الإسـلامـيـة بين الطلبـة في الجـامـعـات والموظفين، وارتفعت نسبـة الذاهبين إلى العـمـرة، وغـمـرت الأرصفة كتب وأشـرطة عن الترغيب بالحور العين والخمور الرائقـة، والترهيب من الشـجـاع الأقـرع في القبـر والنيـران والقطران فيما بعد...!

مـات ملوك وأباطرة ورؤسـاء دول، وتغـيـرت الخـرائط الجغرافية مجدداً، واشتعلت حروب وانطفأت أخرى وتبدلت التحالفات مراراً ...!

عمّـان تغـيـرت كـثـيـراً أيضـاً، وتوسّـعت مع تدفق أعداد هائلة من العراقيين الهاربين من الأوضاع السياسية القاسية في بلادهم، وطلباً للرزق والسكينة، ومثلهم من الفلسطينيين والأردنيين العـائدين قـسـراً من الكويت بعـد طرد الجـيش العراقي منها.

اختفت أخبار الحسيني كذلك.

ودعته آخر مرة على أمـل أن يعود قريبـاً، كنت أعرف أنـه مقـدم على عملية جراحية صعبة، قد لا ينجو منها، وكـان هو يدرك ذلك وهو يبـوح لي بأسـراره، ويودعني حقيبته.

لم يصلني منه أيّ خبر منذ غادر عمّان...، لا رسالة ولا حتى اتصال هاتفي، ولم أتأكد إلى الآن إن كان الرجل حياً أم من الراحلين!

حدث أنني سافرت إلى مصر بعد سنوات من غيابه في رحلة سياحية وحاولت أثناءها البحث عنه، أو معرفة أخباره، لكنّ أحداً لم يعرفه.

كثيرون قادوني إلى شخصيات على أساس أنّها الدكتور

أحمد الحسيني الذي أبحث عنه، لكنه لم يكن واحداً من بينهم، ترى هل كان يقصد إعطائي عنواناً لرجل غير موجود أساساً، أم أنني ضللت بكلّ بساطة، وأسقط في يدي من شدة اليأس..؟

وفي الحقيقة فقد ترسخ لديّ شكّ وأنا أبحث بين ما يزيد على ستين مليون إنسان بشكل يائس أنّ هذا الرجل ربما لم يوجد يوماً قط!

قد تكون حقيبته التي أودعني إياها الشيء الوحيد المتبقي منه، والتي تدلّ على أنه كان ذات يوم في هذا العالم.

صرت في أعماقي متأكداً من رحيله إذ لو كان ما يزال حياً لأرسل إلي أيّ إشارة!

وها أنذا أشعر الآن بأنّني أتحلل من العهد الذي كان بيننا خلافاً لأيّ وقت مضى، وبأنّني أكثر قدرة على تحمل ما تحوي هذه الحقيبة من أسرار، أو اعترافات، وربما أيضاً لن أجد فيها غير الهباء!

أمي رحلت كذلك.

تلك صدمة لم أستفق منها بعد رغم مرور ثلاث سنوات قاسيات.

المرأة الاستثنائية في هذا الكون التي قطعت عهداً

بوجهها الوضاء وحنانها الدافق، وحضورها القدسي في حياتي أمام الحسيني ذات ليلة مضت تاركة حزناً ثقيلاً يرنو على قلبي، وشعوراً بأنّ هذا العالم لم يعد يسكنه سوى الخراب!

كان الموت يشكّل لي هاجساً مقلقاً تصعب الإجابة عنه وفهمه، ورغم انشغالاتي الكثيفة خلال الفترة الماضية بالتعرف على خفايا هذا العالم وما وراءه متأثراً بتلك الشعلة التي أيقظها صديقي الغائب في أعماقي، فقد أخذتني الحياة اليومية في دواماتها، متنقلاً في أعمال متشعبة، ونسيت أشباح الماضي التي طاردتني وما تبقى من الهندسة، وصراخ التلاميذ في القرى النائية إلى غير رجعة!

كانت كلمات «الحسيني» وحياته الغامضة تطلّ عليّ بين الحين والآخر، فأقرر أن أتبع خطاه، أو أعود للبحث عنه، وأحياناً أبدأ بقراءة بعض الكتب عن الموضوعات التي حدثني عنها، ثم لا ألبث أن أستسلم لإيقاع الحياة الرتيب، ومتطلباتها الطاحنة، فأغيب طويلاً بعيدا عن نفسي، لكنّي أشعر اليوم وأنا على مشارف الأربعين بأنّ عليّ أن أسكت هذا القلق الذي يحفر أخاديده في أعماقي، لأنهيه إلى غير رجعة، ولعلّ أفضل وسيلة هي فضّ مكنونات الحقيبة، والانتهاء من هذا الملف الساخن الذي يلحّ عليّ بين الفينة

والأخـرى، وقلت لنفـسي إن وجـدت فـيـهـا شـيـئـاً مـخـتلفـاً فسوف أكتسب معارف جديدة في هذه الحياة، وربما يشتعل قلقي من جـديد، أو ربما لن أجـد شـيـئـاً ذا بال فـأهدأ إلى الأبـد!

عمّان

(ذات ليلة من صيف ١٩٩٧)

حقاً كلّ شيء يأتي في أوانه، وها أنذا أجلس وحيداً أفتح حقيبة الحسيني التي بهت لونها وتغضّن جلدها، فتنهال عليّ أوراق ودفاتر، ورسائل مكتوبة بالروسية، وأخرى بالعربية، وشريط فيديو، وبعض الصور الفوتوغرافية، وتنثال معها كلّ تلك اللحظات التي مرّت علينا معاً، وها هي ورقات متفرقة من دفتر مذكراته أقرأها فتكاد تقودني إلى الخبال:

« ..... لم أستطع استيعاب ما أفشاه سيرجي لي من أسرار..!

يوماً فيوماً يخبرني أشياء جديدة، تعكس ثقته بي، بعضها يبدو لي ضرباً من الخيال، أو الوهم المثير، فما معنى أن يمتلك الفراعنة علوماً متطورة قبل آلاف السنين، وكيف يريد أن يغيّر هذا الرجل تاريخاً متناقلاً بأكمله لهذا العالم، ولماذا لم تصل إلينا هذه العلوم التي يتحدث عنها اليوم أيضاً..؟

ما يزال كلامه يرنّ في مسامعي:

«مرّت البشرية يا أحمد بتبدلات ما بين العلو والهبوط في علومها وحضارتها، ولأمر ما تصل إلى القمة ثم تهبط إلى الأسفل دفعة واحدة، وكأنّ هناك من يعاقبها، أو أنها هي نفسها تدفع ثمن ذلك التطور الذي وصلته إن لم تستطع أن تصونه..!

أنا أؤمن بأنّ هناك حضارات أخرى أكثر تطوراً من بني البشر، راقية وحكيمة، وهي موجودة في مكان ما، أو بعد آخر لا ندركه، لكن يمكنها أن تتصل بنا إن أرادت، ولهذا أشعر بأننا مراقبون في حركاتنا وسكناتنا، وفي تطورنا وخمودنا منذ عصور سحيقة.

يخيل إلي أحيانا أننا نحن البشر مثل فئران تجارب بالنسبة لحضارات متقدمة ولكائنات أشدّ قوة منا!

لدينا وهم زائف بأننا وحدنا في هذا الكون، رغم كل الإشارات التي وصلت وتصل إلينا كل يوم من هذه العوالم..!

قلت لك مرة إن هناك مئات الآلاف من البشر الذين رأوا أطباقاً طائرة مثلاً ومركبات غريبة، وسجلوا اعترافاتهم، وهناك أيضاً من التقى بكائنات أخرى.

لدينا هنا سجلات لهذه المشاهدات، ولكن لا يمكن لأحد أن يطلع عليها من غير المتخصصين، وهي على درجة

عالية من السرّية..!

لقد عرفت بحكم بعض صلاتي شيئاً من ذلك، إضافة إلى أنّ تخصصي في «الباراسايكولوجي» جعلني على معرفة بما يجري ولو قليلاً، تصور مثلاً أنّ بيننا من يعتقد أنّ الأمريكان طوّروا أطباقاً طائرة سريعة جداً، وهي التي نراها، وهم يظنون أيضاً أننا طوّرنا هذه الأطباق، والحقيقة في مكان آخر ليست في روسيا أو أميركا، لأننا لو كنا نمتلك هذه التكنولوجيا لسيطرنا فيها على العالم..، وكذلك سيفعل أعداؤنا من الإمبرياليين الأمريكان لو أنهم حقاً امتلكوها..».

❖❖

..... أدخلني سيرجي اليوم إلى غرفته الحصينة في البيت، وأراني بعض الأفلام التي صورها وفريقه في الأهرامات وعدد من المعابد، قضينا ثلاث ساعات معاً، وقال لي:

« ..... أنت واحد منّا الآن، وأنا أثق بك، فحذار أن يطلع على هذه المعلومات أحد، ولا حتى «أولغا».. يجب أن تتعلّم وضع أسرارك في صندوق مقفل داخل أعماقك لا يستطيع أن يصل إليه أحد أبداً..!

أنا اختبرتك بهدوء عبر السنوات التي عرفتك فيها

وسيكون لديك دور ما ذات يوم، فانتبه جيدا لما أقول.

بدأ الأمـر منذ جـرى اخـتـيـاري لأكـون في بعـثـة الاكتشافات الأثرية التي ستذهب إلى مصر، لقد تمّ تجميع فريقنا من أفضل الخبرات في تخصصات متنوعة، وعملنا على مشروع اسمه «إيزيس» كان هدفه الوصول إلى معرفة تلك الأسرار التي كان الفراعنة يمتلكونها، واستطاعوا بها أن يبنوا حضارتهم العظيمة، بالنسبة لي فقد كانت فرصة ذهبيـة لأتعرف على بعض أسرار تلك الحضارة المذهلة، وبالفعل منحتني السنوات الثلاث بداية الستينيات في مصر خبرات لم أكن أحلم بها، وجعلتني أذهب إلى جهات أخرى لأنقب فيها بحثاً ودراسة من جديد..!

أما الذي توصلت إليه فإني أحكي لك جزءاً منه الآن، وربما تطور تجـربتك في قـادم الأيام، وتكتـشف بنفـسك المزيد، وهو أنّ بعض الحضارات البشرية القديمة وصلت حالة عليا من التطور ذات أزمان سحيقة، فالإنسان لم يتطور من قرد كما يروّج داروين وأتباعه، بل على العكس من ذلك فقد وجد كاملاً بقدرات هائلة ظلت تتلاشى وتضعف حتى وصلت إلى ما هي عليه الآن.

لنقلب النظرية إذاً رأساً على عقب ونقول مثلاً إن القرد ربما يكون نسخة فاشلة من الإنسان!

بعض البشر ظلّوا يحافظون على تلك القدرات الخاصة

للتواصل مع العوالم الأخرى الموجودة في الكون على كواكب أخرى، بعضها تفصلنا عنها آلاف السنوات الضوئية، وكما تعرف أيضاً فإنّ الكون مليء بمئات الآلاف من المجرات والنجوم، وحسب نظرية الاحتمالات البسيطة، فإنّ هناك إمكانية لوجود كواكب يمكن أن تتشابه ظروفها مع جوّ الأرض وعليها حضارات أخرى متطورة جداً، وربما تكون بشرية أيضاً فما المانع أنّ بعض أجدادنا العظام وصلوا هناك ذات زمن لا نعرفه؟

وحتى إذا لم تتشابه مع الأرض، فإنّ هذا لا يدلّ على أنه ليس عليها كائنات عاقلة تناسب مناخها وطبيعة عناصرها، ولكن تفكيرنا القاصر يقودنا دوماً إلى التفكير بأننا النسخة الوحيدة من الكائنات العاقلة في هذا الكون والأكثر علماً وتقدماً!

هناك احتمال آخر وهو أنّ بعض الكائنات المتقدمة من الحضارات الموجودة خارج الأرض لديها قدرات هائلة على التشكل في أجساد بشرية، والقصة باختصار أنّ بعضها نزل إلى الأرض وعاش بين أهلها فيما يشبه البعثات التطويرية لدراسة كوكبنا، وكذلك لمساعدة أبنائه في التقدم الحضاري العلمي والاجتماعي، وتضمّ تلك البعثات أولئك الذين يطلق الناس عليهم لقب القديسين والأنبياء والكهنة، وأيضاً من كبار العلماء والفنانين الخارقين في الذكاء والقدرات،

وأكثرهم ساعد في بناء حضارات عظيمة ومتطورة، ونشر العلوم وأسرار الطب وترقية السلوك البشري وجعله حضارياً ومسالماً..، وقد ظنّهم بعض الناس آلهة أو أنصاف آلهة، فقاموا بعبادتهم أو جعلهم ملوكاً عليهم..، وبعضهم حوربوا بشدة واتهموا بالجنون والسحر فقتلوا أو أحرقوا...!

ويبدو أنه حينما تصل الأمور إلى هذه المرحلة المنحدرة يجري التدخل من الحضارة العليا التي ينتمون إليها بإنزال عقاب على الناس الأرضيين الجهلة لسوء أفعالهم ولقتلهم أولئك المعلمين الكبار!

لقد جاء بعضهم بعلوم شتّى في الفلك والطب والعمارة والحساب، بل كانت بعض العصور تشهد تواصلاً مباشراً بين تلك الحضارات، ويرونهم رؤية العين، ولكن لا يستطيعون تفسير وجودهم، أو فهم دورهم كما قلت لك!

تفحّص الرسومات التي خلّفوها لنا جيداً ترى صورهم جليةً عليها، لكن الناس عادة لا يرون حقّ الرؤية، ولا يريدون أيضاً أن يعرفوا الحقائق حتى لو كانت أمام أبصارهم!

بالمناسبة ليست كل الحضارات الأخرى صديقة للبشر ومسالمة، بل ثمّة ما ينطوي على الشرّ والطاقة السلبية التي تحاول أن تجعل منّا عبيداً لها، وتوقع بنا أشد العذاب، وفي

الواقع هناك صراع دائم بين القوتين الأزليتين في هذا الكون، أي الصالحين والأشرار كلاً بطريقته!

إنه صراع الاستحواذ على البشر الذين ينحاز بعضهم إلى هذه الجهة أو تلك.

فوتوغراف

صورة (١)

يبدو الحسيني واقفاً مع مجموعة من الطلبة العرب والروس أمام كلية الطب في لينينغراد، وعلى محيّاه ضحكة صاخبة لشاب عشريني. جمال الطبيعة من حولهم ساحر، وعمارة الكلية مدهشة، أعرف هذه الأمكنة جيداً، قضيت سنوات أتشرب تفاصيلها، وأستنشق هواءها، وأتمشى غير بعيد عنها!

يمرّ شريط الذكريات سريعا فأنتبه.

لكأنّي هنا بينهم أضع يدي على أكتافهم، بشعري الطويل، وبشاربي الكثين، ولحيتي غير المشذبة، وتلك الفيلدة العسكرية التي تغطي نصفي الأعلى وشيئاً من بنطلون الجينز.. كم مرة عدت حاملاً معي بضعة بناطيل مثلها لبيعها هناك حتى توفر لي مصاريف أشهر عديدة..!

تلك أيام مضت فليهنأ «غورباتشوف» اليوم بنظرياته

المدمّـرة، وبالضـخ الهـائل من بناطيل الجـينز وسـاندويشـات الماكدونالدز، وهـي تفرط عقد الاتحاد السوفييتي مثل حبات المسبحة ..!

صورة (٢)

لا بدّ أن هـذه الشـقـراء البـديعـة التكوين هي أولغـا والحسيني الشاب إلى جانبها. ثمة حالة من التأهب للتزلج فوق سهوب ثلجية شاسعة. الملابس ثقيلة، والأجواء تسودها السكينة. من الواضح أنّ روح المغـامـرة تظلل تلك اللحظة الزمنية التي خلدتها الكاميرا في لقطة..!

كـأنّ الصـورة تهـتـزّ أمـام نـاظري وتدخلني إلى عـالم حقيقي كنت منغمساً فيه ذات يوم..!

زخم الحـيـاة هناك لا يجارى، لم أعش مـثـيـلاً له في مكان آخر.

كـانت الأفكار الكبـرى حـول الكون جـامـحـة وصلدة لا تذهب أبعد من المادة بغيـةً لها، وكنّا مثل كائنات نهمة نحاول أن نعبّ من قارورة الحياة قبل أن توشك على النفاد!

وكان ثمّة شقراوات رائعات أيضـاً، ومشتعلات بالفودكا والثـورة والحـرية والتـمـرد، يجـعلن من صـقـيع النظريات الجدلية المعلبة، وأيام الدراسة الكئيبة، والغربة القارصة عالماً من الجمال والدفء اللذيذ.

صورة (٣)

أولغا مجدداً..!

لكنّها هذه المرة فوق جمل، وخلفها الهرم الأكبر، تكاد حرارة الشمس التي تختزنها الرمال تتوهج من داخل الصورة، ملامح أولغا غير واضحة، لاسيّما وهي ترتدي نظارة شمسية، وطاقية، إضافة إلى أن اللقطة بعيدة حتى تظهر ضخامة الهرم..!

إذن كانت أولغا هناك ذات يوم، ولعل الحسيني قد جاء بها إلى الأهرامات محاولاً أن يظهر لها تلك الاهتمامات التي كان يتشارك فيها مع والدها وبعض رفاقه، لكنّ المرأة الرقيقة الحالمة كانت في تلك اللحظة منشغلة، كما يبدو عن جمال الأهرامات وأسرارها، نحو لحظة تعزف فيها على الفلوت، فينساب صوته الشجي مختلطاً مع أقداح النبيذ الجورجي المعتق، وصوت شآبيب المطر وهي تطرق على زجاج الشبابيك..!

تلك لحظات أستطيع أن أتخيلها بدقة وأبني تفاصيلها ثانية فثانية..

لقد كانت لي أنا أيضاً أولغا تخصّني، باسم آخر وقصة أخرى تبدو لي للتو حلماً جميلاً عشته ذات أيام مضت، ولكن لا يبدو لي أن هذا أوان استحضاره..!

الصاعدون إلى الأعالي

تعرفت على خمسة من رفاق سيرجي الذين كانوا معه في مشروع «إيزيس» في مصر، وقال لي إنّ هناك آخرين قد ألتقي بهم ذات يوم وقد تفرقت بهم ظروف الحياة في المدن الروسية، لكنّي عرفت فيما بعد أنهم قد شكّلوا فيما بينهم جماعة خاصة أطلقوا عليها اسم «الصاعدون» وهي تضمهم مع عدد من زوجاتهم اللواتي اقتنعن بأفكارهم، وفهمت أنّ هذه الجماعة التي أصبحت مقرباً منها بطريقة لا فكاك منها اكتشفت طريقة للتواصل مع حضارة أخرى على كوكب يدعى «سيروس»، وأنّ رئيسها الذي لم التقه بعد هو الذي يقوم بالاتصال مع هذه الحضارة بطرق خاصة لا يفصح عنها، وأنّ هناك إمكانية أن تنتقل الجماعة ذات يوم إلى هذا الكوكب بطريقة ما، بل إنّ هذا هو حلم كل فرد فيها، ولهذا أطلقوا على أنفسهم اسم «الصاعدون» انتظاراً لليوم الموعود الذي يمكنهم أن يصعدوا فيه إلى الأعالي بمساعدة التقنيات المذهلة لتلك الحضارة الراقية، ويعيشوا

هناك في ما يشبه الجنة!

قال لي سيرجي بعد أن بقيت أسابيع مصدوماً من غرابة الحكاية إنّه لا يمكنني التراجع أبداً بعد الآن، وإنني عرفت الكثير، وإنّ هذه الأسرار قاتلة إن بحت بها لأي شخص في هذا العالم، ولكن أحتاج إلى تعميق معارفي العلمية لتكون جاهزة لتفهم الأمر أكثر فيما بعد:

«اسمع يا أحمد، قضيت عمري وأنا أبحث عن حقيقة أستند إليها في هذا الكون الشاسع، وأخيراً اهتديت وعرفت طعم الأمل بوجود من هم أكثر منا علماً وحكمةً، يعيشون أعماراً طويلة، ولا يعرفون غير السكينة والتأمل بعيداً عن المرض والشيخوخة والصراع الأرضي الدموي بين البشر، ونحن «الصاعدون» لسنا جماعة تخريبية أو ضد الشيوعية أو بلادنا، بل على العكس فربما نفهم أكثر تلك الحضارة التي تفيد بلادنا وأهلنا.. ولكننا أصبحنا نعتقد أنّ الأمر يتجاوز التفكير البشري القاصر المحكوم بالجغرافيا السياسية، والمشاكل والصراعات إلى عوالم أرقى، ولا نستطيع أن نصرّح بالأمر لأحد، فبالإضافة إلى أنهم سيعتبروننا مجانين فوراً، سيتم اعتقالنا كجماعة سرية لديها غايات غير مفهومة..».

وقال مضيفاً:

«نحن كجماعة نثق بمرشدنا الذي يتصل بتلك

الحضارة بدون أي شكّ في قدراته، لأننا شهدنا معاً العديد من الأسرار منذ كنا في مصر، وحينما يأتي أوان صعودنا إلى كوكبنا الأجمل حيث أبناء السماء الرائعين بانتظارنا ها نحن نستمر في التعرف على هذا العالم الأرضي وتفاصيله، وننتمي إليه بكل اشتراطاته..».

❖❖

حدثني سيرجي ذات يوم بما يسبب الذهول:

قادتنا أبحاثنا إلى أنّ العلوم كلها والحكمة والتطور المذهل للبشر، وصل قمته في «قارة أطلنطس» ثم ما لبث أن تلاشى لأمر ما نجهله، بعض التأويلات تذهب باتجاه تجارب علمية خطيرة قام بها علماء تلك القارة قادت إلى تفجيرات ضخمة أسهمت بإغراق القارة على دفعات..، لكن هناك توقعات بأنّ عدداً من الناجين واصلوا استغلال خبراتهم في بناء حضارات أخرى على هذا الكوكب، لا سيّما في مصر وأميركا الجنوبية والصين وجنوب العراق، وعموماً كان هناك من أجدادنا دوماً من له مثل وضعنا الحالي أي هناك أناس لا يفقهون شيئاً غير الطعام والتناسل والسير مع القطيع، وأناس يقودون ويفكرون ويعرفون الحقائق، ولهذا لا يرغب أفراد الطبقة الخاصة في إيصال أسرارهم إلى الطبقة العامة، لسببين أولهما أنهم

لن يستطيعوا استيعابها، وثانيهما أنهم قد يسيئون استخدامها..!

هل عرفت الآن لم قلت لك أن تضع معارفك كلها في «صندوق مقفل» لا يطلع عليه أحد..!.

قصاصة من جريدة «الأهرام»
(٢٥ نيسان ١٩٨٥)

اختفاء مجموعة من السياح الروس بطريقة غامضة

الأهرام - خاص: «ما يزال البحث مستمرا عن مجموعة من السياح الروس اختفوا بطريقة غامضة ليلة أول أمس بعد مغادرتهم فندق هيلتون القاهرة، ويقدر عدد السياح الذين معظمهم من كبار السن ١٣ رجلاً وامرأة، ولم يعرف بعد سبب اختفائهم، وقال مدير شرطة الجيزة المقدم حمدي الشرقاوي بأنّ سائق حافلتهم السياحية تركهم في مكان معين غير بعيد عن الأهرامات، بعد أن طلبوا منه أن يوصلهم إلى تلك المنطقة بحجة أنهم يريدون ممارسة رياضة المشي، وحينما عاد إليهم بعد نحو ساعة لم يجد لهم أثراً، وأن التحريات تجري حالياً من أجل معرفة مكان هؤلاء السياح الذين من المتوقع أن يكونوا قد ضلوا الطريق، ومن المنتظر أن.....»

❖❖

لاحظت أولغا عليّ الشرود منذ أكثر من شهر، قالت لي:

غريب أمرك كلما ذهبت لزيارة والدي تعود ساهماً وبحالة أخرى غير التي أعرفك بها، يبدو أنّ النقاشات والأفكار الجامحة التي يحبّ والدي ورفاقه أن ينغمسوا بها، وكتبهم وتلك المنحوتات والرسومات والرموز التي تنتشر في كل أرجاء البيت، تصيب الواحد منّا بالدوار، أنا مصابة بالملل من غياب والدي الطويل في عالمه الخاص وحياته الرتيبة في مكتبه!

في الحقيقة أصبت بالإحباط من إمكانية إصلاحه، فهو يعشق عالمه تماماً، وأنا كذلك أعشق عالمي في الانغماس بالحياة والموسيقى والفنون والتعرف على الناس، أمي تحاول أن تمسك العصا من المنتصف لإرضائه أولاً، أما أخي فلديه اهتمامات مغايرة تماماً كما تعرف تذهب باتجاه الرياضة والحياة العسكرية!

أنا أدرك أنك تميل كثيراً إلى عالم والدي، وأنك تستطيع أن تنسجم معه، لكني أخشى يوماً أن أفقدك مثله!

أنظر إلى نفسك أين وصلت من كثرة التفكير والانسياق مع الخيال.

دعنا نرتبط في هذا العالم بتفاصيله الحميمة...

دعنا نشمّ الوردة لا أن نحلل ألوانها...

نعزف على الكمنجة لا أن نصف أوتارها...

نتذوق الطعام لا أن نسأل عن كيفية طهيه...

دعنا نحتفي بالرقص فوق الثلوج أو التزلج، المشي بين الغابات، السفر إلى مدن أخرى...

دعنا نفعل أي شيء جديد ينبض بإيقاع الحياة الصاخب بعيداً عن هذا العالم الورقي الكئيب والجامد والماضي بكلّ ثقله وتماثيله وعلومه المؤرقة..... لننظر إلى المستقبل بدل العودة إلى الوراء...

أرجوك يا أحمد أن تستيقظ مما أنت فيه!

أشعر أنك تغوص في عالمك شيئاً فشيئاً، وربما استيقظ ذات صباح وأجدك قد اختفيت تماماً من عالم البشر فيخسر بعضنا بعضاً!

من رسالة أولغا

...، لا شكّ في أننا نسير في طريقين مختلفين، انتظرتك هنا منذ أكثر من عام ولم تأت، وأنا لن أستطيع العودة هناك مجدداً، ذلك عالم يصلح لوالدي تماماً ولا يصلح لي أبداً!

لقد بنيت عالمي معك هنا، ولم أكد أعرفك هناك فقد أحسست بك شخصاً آخر.... لكأنّ الأمكنة جزء من شخصيتنا تسكننا ونسكنها.

كان كلّ شيء جميلاً بيننا هنا، وليتك تستطيع العودة من جديد..، ولكنّي أعرف ظروفك المتشابكة، ولا سيّما وقد أصبحت ربّ العائلة بعد رحيل والدك، أتفهم وضعك، ولكن أرجوك أن تتفهم وضعي أنا أيضاً، فما ذنبي في كل ما يجري!

أظنّ أن الأمر أكثر تعقيداً مما أصفه في رسالتي هذه، أشعر بأنك تغيّرت كثيراً، وكأنّ لعنة ما قد أصابتك، لا أستطيع أن أصف بالضبط شكل هذا التبدل الذي انتابك،

ولكنّي أحسّ به تماماً.

أعذرني فأنا لا أريدك أن تنتظر أكثر لأنّي حقاً لا أفكر بالعودة هناك من جديد، قد أكون أنانيةً من وجهة نظرك في طريقة التفكير هذه، وربما أكون قد أصبت باللعنة ذاتها التي اخترقتك، ولكنّي اتخذت قراري بكلّ هدوء، وها أنذا أمنحك حريتك، وأطلق لك الخيار لتفكر بعيداً عني، وأرجو أيضاً أن تحررني من هذا الرابط الذي لم يعد يعني لكلينا الكثير!

من رسالة سيرجي

«... أعرف أنّك متعب منذ رحلت أولغا عنك، ليس باليد حيلة، لقد حاولت معها كثيراً، لكنها أصرت على البقاء هنا، تصور أنها اتهمتني بإفساد حياتك بالأفكار الغريبة!

أصبحت تفكر خلال الأيام الأخيرة بالعمل في مدينة أخرى بعيداً عنّا، لقد غدت غريبة الطباع بعض الشيء، وها هي قد مضت ثلاث سنوات وأنتما في هذه الحالة من الانفصال، ولكن الأمر يعود إليكما معاً، ولا أريد أن أمارس أي ضغط عليكما ففي النهاية هي حياتكما ولا شأن لأحد فيها، وعليكما فقط أن تصلحاها أو تنهياها بكلّ احترام..، هي ابنتي وأنا أعتبرك ابني أيضاً!

لا أكتب إليك تحديداً عن هذا الأمر بل لأخبرك أنّه آن الأوان لأن أزور مصر، لقد اشتقت حقاً إليها بعد نحو عشرين عاماً من البعاد، إضافة إلى أمور أخرى استجدت سأخبرك بشأنها حين قدومنا، سيكون معي بعض الرفاق

القدامى الذين تعرفهم، وسنزور عدداً من المتاحف والمواقع الأثرية...... سأرسل لك رسالة أخرى حالما يتحدد الموعد بالضبط، فكن هناك، وأبق الأمر في «صندوقك المقفل». وأنا أتطلع شوقاً إلى لقائك!

فيلم فيديو

..... تبدو عليهم علامات الترقب لشيء ما، حيرة مشوبة بالشوق.. تتنقل الكاميرا بينهم عشوائية، ثمّة من يحملها بغير احتراف، الأصوات غير مفهومة، تشويش...، ارتجاج في الصور... تشويش...

تعود اللقطات أهدأ وأكثر وضوحاً،.. يظهر فيها ما يزيد على عشرة رجال ونساء معاً، يبدو لي من بعض ما وصل إليّ من الأصوات أنّهم روس إضافة إلى أشكالهم التي خبرت مثلها في سنوات دراستي..

لا بد أنّهم سيرجي ورفاقه إذاً.. ها أنذا أخيراً أمام جماعة «الصاعدون» الذين كتب عنهم الحسيني في الأوراق التي تركها لي وحدثني عنهم من قبل...

أغلبهم تجاوزوا منتصف الستينيات، وبعضهم يبدو أنه يخطو نحو الثمانينيات، الوقت يبدو ليلاً..

ضوء مصباح كاميرا الفيديو يتنقل على وجوههم التي

تسطع فجأةً ثم تغيب في الظلام، اللقطات متباعدة قليلاً وكأنها أُخذت بشكل متقطع.

توقف الباص على ما يبدو..

يهبط الرجال والنساء بعضهم خلف بعض ببطء. العلامات التي على وجوههم للترقب باقية.

الكاميرا تتبعهم في مسيرهم داخل مناطق غير مأهولة وتهتزّ علواً وهبوطاً.. تبدو الأرض رملية، لكأنّها قرب آثار ما.

هناك لافتة مكتوب عليها باللغة العربية «ممنوع الدخول» لكنّ المجموعة تتجاوزها لتصل إلى ما يشبه مصطبة حجرية مرتفعة عن الأرض قليلاً، تظهر كما لو أنها جزء من معبد أثري!

ثمة لقطات أخرى مجتزأة لهؤلاء الرجال والنساء وهم يتجمعون على شكل دائرة ممسكين بأيدي بعضهم بعضاً وفي منتصفهم وقف رجل طاعن في السن أراه لأول مرة، لا بد أنه مرشدهم الروحي، أو الوسيط بينهم وبين الحضارة الأخرى الذي قرأت عنه في أوراق الحسيني..

بدا لي أنهم ينظرون إلى الأعلى في لهفة، ويهمهمون بجمل غير واضحة، ولا تنتمي إلى اللغة الروسية كما أعرفها، على وجوههم نشوة الحالم أو المغتبط بأمر ما.

أحدهم يخاطب حامل الكاميرا على ما يبدو بأن يبتعد أكثر.. ثمة حالة من القهقرى للمصور.

اضطراب في اللقطات..

تشويش في الصوت...

تقطيع وعدم وضوح في الصور، كما لو أنّها تتعرض لتيارات كهرومغناطيسية قوية..

مشاهد أخرى متقطعة لضوء شديد سطع لثوان معدودة.... تشويش....

لا أثر لأحد ولا لقطات أخرى.....

أوراق أخرى وجدتها
في الحقيبة

(١)

لو لم أكن هناك أوثق لهم بالصوت والصورة لما صدقت ما جرى، بل لو لم أكن منذ سنوات عديدة أتشرّب تلك العلوم تحت إشراف سيرجي ورفاقه، وأتفهمها ولو قليلاً لقلت إنّ الأمر كلّه ضرب من الجنون والخيال!

ربما لا أحد يعرف في هذا العالم أنني الوحيد الذي يمتلك الرواية الكاملة عما جرى..

ها أنذا أمسكها من أطرافها كلها، وتثقلني بما تحتويه من الغموض والدهشة، وما لا يستطيع الناس احتماله. ثمّة طرف خفي لا أدري عنه شيئاً، وهو ما بعد الرحيل أو الاختفاء بل ذلك الصعود إلى عالم أجمل، وأكثر اكتمالاً كما أتخيله على الأقل، وكما كانوا يتشوّقون لرؤيته!

كنت أعرف أنّ عودة سيرجي وما تبقى من رفاقه إلى

مصر بعد عشرين عاماً لا بد أن تكون لهدف كبير، هاهم يأتون كسياح حتى لا يشكُّ بأمرهم أحد، وها أنذا أتولى مرافقتهم حتى اللحظات الأخيرة لوجودهم على هذه الأرض!

لقد تحقق الأمر أخيراً ومضوا بعيداً، وبقيت أنا هنا لسبب ما، كان بإمكاني أن أتبعهم حتى النهاية، ولكنّي فضلت البقاء هنا، أو لأكن دقيقاً بأنني لم أكن جاهزاً تماماً للانتقال معهم... كأنّ إيماني بالحكاية كلها كان يخالطه شيء من الشكّ، وكأن الأمر كله كان جزءاً من فيلم للخيال العلمي وليس حقيقة ساطعة!

كان رئيس المجموعة أو المرشد قد اكتشف كما فهمت سرّ التواصل مع الحضارة الكبرى التي كان بعض أفرادها ذات يوم في مصر، ومن قبلها بآلاف السنوات في قارة أطلنطس الغارقة!

وكان لا بدّ أن يأتي اليوم ويصعد هؤلاء المتخمون بالأسرار إلى مكان جديد لا أعرف عنه شيئاً.

تلك الزاوية العمياء التي ظلت تؤرقني طويلاً!

أين ذهبوا..؟ وما حدث معهم بالضبط..؟

قال لي سيرجي إنهم سيأتون في ساعة معينة إلى منطقة محددة قرب الأهرامات، منتظرين معجزة ما

لتخلصهم من العيش على هذا الكوكب الذي كثرت فيه الشرور!

قال إنّه تم اختيارهم لهذا الأمر، وهم يصدقون مرشدهم الذي وعدهم بالانتقال إلى مكان أكثر جمالاً، وبالعيش فيما يشبه الجنّة بأجسادهم نفسها التي ستشحن خلاياها بطاقة جديدة هناك، وتعود أكثر قوة وشباباً.

حدثني ذات مرّة عن إمكانية نقل المادة بسرعة لا نهائية وسط ظروف تقنية خاصة، وأنّ الأمر يجب أن يتم في ساعة خاصة، ومكان معين يعرفه أصحاب الحضارة الأخرى لكي يتم سحبهم إلى هناك بطرق متطورة جداً..!

قال إنّ هناك نقاط طاقة محددة موجودة على سطح الأرض ولا يعرفها الكثيرون، وهي مرتبطة بنقاط فوقها أو بوابات للسماء تسمى «درب الدودة» لأنها لولبية يمكن من خلالها الانتقال إلى الأعلى، أو الدخول إلى أبعاد أخرى بزمن خرافي..!

كلفني بأن أكون مع المجموعة لأساعد في بعض الأمور، وأصورهم بكاميرا الفيديو حتى اللحظات الأخيرة لعله يأتي من الناس الآخرين ذات يوم من يؤمن بصحة ما جرى لهم، وأنه ليس من صنع الخيال.

في الحقيقة كنت قد بدأت أشكّ بالأمر كلّه، لا سيما

بعد عودتي إلى مصر، ووفاة والدي، ورحيل أولغا وانشغالي بالحياة اليومية التي أصبحت تستنفد الروح والبدن...وتتركني على قارعة الإحباط...، ولكنّ ما جرى أمام ناظري جعلني أستفيق على أن ثمّة حقائق هنا يجب معرفتها واستكمال ما بدأته من التعمق والبحث فيها، فقد عرفت الكثير، وعليّ أن أواصل طريقي إلى الأمام دون تردد.

لن تغيب عني أبداً تلك الوجوه وهي تتطلع إلى الأعلى مبهورة بالقادمين لنقلهم إلى عالم آخر، وذلك الضوء الساطع الذي أعشى الأعين، وأحال الليل نهارًا في لحظات، ثم انتهى مخفياً خلفه ثلاثة عشر رجلاً وامرأة، وتاركاً إياي أتخبط دون وعي، وأعود سراً إلى بيتي لأحتفظ بتلك الوثيقة الوحيدة حتى يأتي أوان ظهورها على الناس يوماً ما...

كان من الجنون أن أحكي لأحد شيئاً عما جرى، ولا أن أنشر شريط الفيديو الذي صورته فمن سيصدق كلّ هذا الهراء، ولا بدّ أنني سأمضي ما تبقّى من حياتي في السجون، وغرف التحقيق بعد كيل الاتهامات لي بقتل هؤلاء السياح، أو إخفاء حقيقة اختطافهم من جهات معادية أو إرهابية!

(٢)

«المادة لا تفنى ولا تستحدث بل تتحول من شكل إلى آخر».

قانون حفظ الطاقة هذا عظيم جداً، يعني أننا أزليون وأبديون معاً، وأننا من الممكن أن نتناوب بين المادة والطاقة وبين الأشكال المختلفة..... أكيد العاقلة منها على الأقل.. أما الفناء فأمر غير مقبول أو منطقي ولا يعترف العلم به أيضاً.

أعتقد أنني فقدت إيماني بالشيوعية بمعناها المادي المجرد وأفكارها الجافة، وأنّ ثمة أملاً من نوع ما ينتظر البشر، وليس التراب والفناء، والعماء الأبدي!

لقد تزلزل إيماني الديني الذي ورثته عن أهلي مسلمًا منذ تلك السنوات الأولى لي في الجامعة، وصار نسياً منسياً، وها هو اللاإيمان الذي أعيشه يتزلزل أيضاً بفعل العلوم، وأحتار لم يتم جرّ الناس مثل القطيع نحو أفكار ضد الأمل، ومع الانغماس في حمأة الحياة اليومية، ودواليبها التي تهرس كل ما يقع بين مسنناتها بلا رحمة!

(٣)

.... منذ تلك الحادثة وأنا شبه مختف عن الآخرين، ومنغلق على نفسي أيضاً..

كنت أحسّ بأنّ العالم كلّه يطاردني، وأنه عرف أنني كنت هناك حين اختفى هؤلاء السيّاح، وكأنني المسئول عن كلّ ما جرى لهم.

كنت أدري بأنني رتبت الأمر بدقة بحيث لا يعرف أحد أنني كنت مرافقاً لهم في تلك الليلة، ولكن كلّ الاحتمالات واردة، ولا سيما مع الكوابيس التي صارت تطاردني بغير رحمة في النوم واليقظة، وكأنني قد ارتكبت جريمة قتل هؤلاء جميعاً!

كتبت بعض الصحف عن حادثة الاختفاء الغامضة أخباراً قصيرة، واضعة الأمل بأنه سيتم العثور عليهم ذات يوم قريب...، وسجّلت شرطة الجيزة وقائع الحادثة رسمياً، وتم التحقيق مع السائق الذي احتار هو الآخر في اختفائهم، وارتبكت العلاقات الدبلوماسية بين مصر وروسيا قليلاً، غير أن الأخبار عنهم سرعان ما تمّ التكتم عليها، ولم تعد الصحف تذكر عنهم شيئاً، ولكن ليس ثمة من تفسير بالنسبة لهم، ربما تاهوا في الصحراء، وماتوا جوعاً وعطشاً...، ربما غرقوا في النيل...، أو اختطفتهم جماعات من المسلحين المتشددين دينياً...، أو المتخصصين بقطع الطرقات وسلب الأموال، كلّ الاحتمالات كانت مطروحة، ولكن لم أكن أنا طرفاً في أيّ منها!

لم ينتبه أحد إلى أنني كنت بينهم، لكن خيّل إلي في

النهاية أنّ تلك الأسرار التي أحملها في منطقة قصيّة من أعماقي، أو في ذلك «الصندوق الخفي» ستتسرب مني ذات يوم أو تسقط عن كاهلي بعد طول حملها وتنتشر بين الناس جميعاً، ومن يدري فربما تأتي «أولغا» ذات يوم باحثة عن أبيها، ومشيرة إليّ أو دالة على أني أعرفه أو تواصلت معه، فتكون نهايتي بلا رحمة!

كان لا بدّ إذاً من الرحيل..! أو على الأصح الهرب إلى مكان آمن، وعصي على عيون عملاء (كي جي بي)، وكان «الأردن» خياري الأول والأخير...!

(٤)

هدّني رحيل كلّ من كنت أستند إليه في هذا العالم، رحلت أولغا عنّي، وربما هي الآن زوجة لرجل آخر، أو امرأة حرة تعيش في مكان ما لا أدري أين هو، ومات والدي تاركاً لي عائلة عليّ أن أتدبر أمرها، وها هو سيرجي ومعه رفاقنا «الصاعدون» يغادرون أيضًا.

من يدري فربما تحولوا إلى ذرّات من الهباء تبدّدت في هذا الوجود اللامتناهي، أو تمّ اختطافهم من جهّات شرّيرة في هذا الكون، أو حتى في هذه الأرض تمتلك تكنولوجيا متطورة!

لست أملك يقيناً في هذا الاتجاه، وربّما ذات يوم قريب سيهبط سيرجي إليّ بمركبة متطورة، أو يجد طريقة ليجذبني إلى ذلك العالم الذي كان يصفه لي بما يشبه الجنة، كي أصبح مثلهم من أبناء السماء الجدد...

كلّ الاحتمالات واردة، فأنا أدرك أنّ معلوماتنا قاصرة وساذجة كذلك قياساً لما تملكه تلك العوالم!

(٥)

عليّ أن أغادر مصر اليوم قبل الغد، أحسّ بأنّ رجال الأمن سيداهمون بيتي ذات ليلة قريبة..

كلّ ما في داخلي يصرخ من ثقل ما أعرف، وكأنّ الأكوان الغريبة التي من حولي أيضاً تتواطأ للإطاحة بي ووضعي في غياهب السجون...!

هل حقاً رأيت كلّ ما رأيت وعرفت كلّ ما عرفت...!

من سيصدق كل هذا الهذر...؟

يوما ما سيأخذ أحدٌ عني هذا الحمل الثقيل، لأني أريد أن أمضي أنا أيضاً إلى عالم أكثر جمالاً.

لقد تعبت حقاً....!

(٦)

رأيت سيرجي ورفاقه في منام غريب، كانوا في منطقة بيضاء تماماً، ويؤشرون لي مبتسمين بأن أدنو منهم، لم يكن ثمة صوت لهم، غير أنّني أحسست بندائهم، وحين هممت بالاقتراب منهم لم أجد شيئاً غير السراب لكنّي استيقظت بنشوة لا مثيل لها!

(٧)

هل كان راسبوتين أسطورة روسيا القيصرية في خواتيمها من أولئك القادمين، وعاش بيننا بشكل بشري غير أنه لم يستطع أن يخفي تلك القدرات الخارقة التي يمتلكها...؟

هل البشر نسخة بدائية لكائنات أخرى بعضها من الأشرار وبعضها من الأخيار؟؟

لماذا تبدو صور بعض الآلهة التي يرسمها البشر بلون أزرق عند الهنود مثلاً...؟

هل كان هؤلاء من أصحاب الدم الأزرق مثلاً أو احتوت أجسادهم على عناصر لا تعرفها أرضنا جعلت لهم هذا اللون..؟

هل.... ؟

هل....؟

هل....؟

هل أنا مجنون...؟

(٨)

قادتني خطاي مساء اليوم لحيّ السيدة زينب، تجولت كثيراً على غير هدى، وشربت الشاي بالنعناع في مقهى وسط أسواق خان الخليلي، رأيت الشيوخ والمجاذيب والشحاذين والتجار والسياح والعشاق ورجال الأمن والطلبة والمتسوقين..والتائهين مثلي..، وسمعت دبيب نسغ الحياة وهو يجري بين الناس بقوة نافضاً عن رأسي المتخم كل النظريات والأفكار والأحلام، وغاسلاً إياي في نهر الواقع بكلّ عنفوانه.

قضيت شطراً من الليل أذرع الأزقة والطرقات باحثاً عن شيء ما لا أعرفه، ها أنذا في الأرض أخيراً بكل ما فيها من ليل ونهار، وبشر وطرقات وحوانيت ومأكولات، وهدير المركبات فلماذا عليّ أن أتطلع إلى الأعلى منتظراً معجزة ما..!

الحياة نفسها بكل ما فيها تستحق أن تُعاش حتى الثمالة!

ثم كما لو أنني وجدت نفسي أدخل حانة انبثقت أمامي، فرحت أعبّ من القوارير بلا نهاية، وأخرج بعد حين إلى الأزقة من جديد لا أدري إلى أيّ الجهات أسير، وكأنّ الطرقات كلها أصبحت فارغة، وحلّ على الكون سكون غريب، ورأيت رجلاً وحيداً يسير أمامي، توقف فجأة وأدار وجهه لي مبتسماً فأصبت بالدهشة..

يا إلهي هذا وجه أعرفه جيداً، وأحسّ به يشبهني تماماً، لكأنه نسخة أخرى منّي، كما لو أني أنظر في مرآة، وهو يقول لي بصوت هادئ:

يا أحمد لا تبحث هناك - وأشار إلى الأعالي - بل هنا وأشار إليّ..!

وفركت عيني غير مصدق، ولم أر بعدها شيئاً غير الليل وهو يمسح عتمته بالطرقات..!

جبل عمّان
(صيف ١٩٩٧ أيضاً)

كنت أنتظر فتح الحقيبة علّي أجد فيها ما يجتث قلقي المزمن، ولكنّي ازددت حيرة، وتهت أكثر بعد أن انهالت عليّ الأسرار والحكايات الغامضة التي يبدو لي فيها الخيال قزماً.

انبلج فجر تلك الليلة ولم أكمل قراءاتي ومشاهداتي مما وجدته في تلك الحقيبة، فتركت ثلاثة دفاتر غير مفتوحة ومجموعة رسائل، وصوراً لعله يأتي يوم آخر فأعود إليها.

تخيلت الحسيني وهو يمسك بكاميرا الفيديو ويلتقط آخر اللحظات لجماعته السرّية غريبة الأطوار، ولو لم أكن أعرف شخصية الرجل ومقدار صدقه لقلت إنّ الأمر كله وهم وتلفيق!

وعجبت كيف احتمل كلّ تلك الأحوال التي مرت به ولم يصب بمسّ من الجنون!

تلك عوالم مخفية على العامة من الناس، ولا يعرف بعض أسرارها إلا من أوتي حظاً من العلم، ولم يكن بالإمكان أساساً أن أستوعب مثل تلك الأمور، أو أتقبلها لولا أنني تغيرت كثيراً، وتبدلت أحوالي، وصرت أكثر شفافية مما كنت عليه، غير أنّ المسألة الكبرى أضحت بالنسبة لي هي كيف أربط معارفي التي كونتها من زاوية أخرى طيلة السنوات السابقة، بما وصل إليه الحسيني...؟

قضيت ليالي أخرى ساهراً أقرأ ما تبقى من أوراقه التي أدخلتني مجدداً في دهاليز الغموض، ودوختني بما فيها من الغرائب التي أسمع عنها لأول مرة، وجعلتني أعيد النظر بمسلّمات كثيرة، وأضع معارفي كلها تحت خانة الشكّ والاختبار.

كنت مثل الذي يطارد قطعاناً من السراب، كلّما شارف على الاقتراب منها اختفت وازداد عطشاً..!

خيّل إلي وأنا أقرأ بعض أوراق صديقي الذي غاب طويلاً، بأنّه كان يريد أن يوصل رسالة ما تضم خلاصة ما توصل إليه، وكأنّه كان يريدني أن أسلك الدرب نفسه، لكن بخطواتي الخاصة ليصل كل ذلك إلى الناس بطريقة أو بأخرى، كنوع من التنوير بالتعرف إلى الحقائق بعد أحقاب من التضليل، وجرّهم مثل القطيع بمعارف واهية...، وشعرت بأنّ هذه الأمانة التي بين يدي غالية الثمن وصعبة

الاحتمال معاً، وأنه ربما تنتظري أيام حافلات...!

❖❖

احترت من أين أبدأ، وكم رغبت بالعودة إلى طمأنينتي السابقة بأننا من التراب جئنا وإليه نعود، وما بينهما رحلة عشوائية أنجزتها الطبيعة بتجلياتها، وما بعدهما الفناء والسكون الأبدي، وأن عليّ أن أقطف من ثمرات هذه الحياة ما استطعت ولكن هيهات، فما عرفته لا يمكن أن يجعل المرء مطمئناً أبداً، بل صار يسري في أعماقي مزحزحاً أولاً بأول ذلك الركام الهائل من المعارف التي جمعتها ساعة بساعة، ويوماً بيوم، على مدار أربعين عامًا مضت، وكلّما أردت الرجوع إليها من جديد وجدت حائطاً من الرصاص مضروباً بيني وبينها، فلا أستطيع الركون إليها مرة أخرى، بل أراها أصبحت بالية، لا روح فيها، وأنّ كلّ جديد يضيء شيئاً من أعماقي، رغم أنه يزلزلني أياماً وأشهر مثل حمىّ تصل ذروتها ولكن سرعان ما يعقبها الشفاء وتجللها السكينة..!

تمنيت لو أنّ الحسيني يعود إليّ من جديد بكامل بهائه ليقودني في تيهي، غير أنّه لم يبخل عليّ بحضوره عبر أسراره التي استودعني إياها، محرضاً إيّاي ربما على البحث والانطلاق في الطريق، وشعرت بأنّ عليّ أن أخصص وقتاً لرحلتي الخاصة بالتعرف على أناس آخرين

لديهم تفسيرات لهذه الأسرار، أو مروا بتجارب مقاربة، أو لعلهم يعرفون شيئاً عن تلك العوالم التي طاردتني يوماً ما، أو التي سحبت أولئك العلماء الروس إلى المجهول، واحترت من أين أبدأ، لكنّي في غمرة حيرتي المدوية، وقلقي العاصف تذكرت مقولته لي ذات يوم:

«حينما يكون التلميذ جاهزاً يحضر المعلم...».

الولوج إلى الداخل
(بداية الألفية الثالثة)

تبدلت أحوالي عبر السنوات التي انقضت، فقد اشتعل الرأس شيباً، وولجت أعوام الأربعين بلا تردد، وكنت قد تركت عملي في التدريس دون أدنى ندم، ومرّت عليّ أزمان من التقلب بين الصعود والهبوط في أعمال حرّة شتّى، حتى تدخل والدي أخيراً واقتنع ببيع قطعة أرض له بعد أن ارتفع سعرها بشكل هائل في غمرة التبدلات التي شهدتها البلاد، وبالمبلغ الذي نقدني إياه افتتحت مكتبة شاملة قرب الدوار الأول بجبل عمان تبيع الكتب والقرطاسية والمواد الطباعية والألوان.

كنت أقضي فيها جلّ وقتي، منشغلاً بترتيب أمورها لتتطور من جهة، وبالعائلة الصغيرة التي بدأت تكبر من جهة أخرى!

كان شغفي بقراءة الكتب قد أصبح عادةً يومية تنعش العقل والخيال، وهي الشيء الوحيد الذي ظلّ يلازمني طيلة فترة التغيرات التي تناوشتني، كما أصبحت أخصّص وقتاً

لمشاهدة الأفلام السينمائية في بعض دور العرض الحديثة، التي بدأت تنتشر كاسحةً أمامها الدور الشعبية الكئيبة في قاع المدينة، وبدت لي ذكريات الماضي والحسيني قصيّة، كما لو أنّها حدثت مع شخص غيري حتى جاء موت أمي قبل سنوات قريبة، وتسربها من بين يدي إلى المجهول بلا عودة ليوقظ فيّ ما انقضى من القلق والتساؤل...!

بقيت أياماً طويلة مصاباً بالذهول محاولاً أن أفسر الموت العنيد والقاسي الذي سرق منّي أجمل النساء في هذا الكون، وبدت آثار الصدمة تزداد توغلاً في أعماقي، مثيرة عاصفة من الأسئلة الحارقة عن سرّ هذا الخطف المباغت وإلى أي العوالم يفضي، وهل حقاً ستتحول أمّي ذلك الكيان النابض بالنور والحب إلى حفنة من تراب وعظام نخرة..!

يوماً بعد يوم صرت أدخل في نفق ذاتي المعتم متقوقعاً بعيداً عن العالم الخارجي الذي بدا لي هشاً وخادعاً، وكان عليّ أن ألجأ إلى طبيب نفسي يخفف من وطأة الكآبة التي استشرت، ويعيدني إلى الواقع بكل تناقضاته، وشعرت بأنّ الحبوب المضادة للكآبة هي الحل السحري الذي ينعشني ولو بشكل مؤقت، ثم لا ألبث بعد انقضاء مفعولها إلى التقوقع من جديد، هذا عدا إدماني الشراب والتدخين حتى غدا جسدي مسكناً خرباً أنتظر يوماً يستنفد فيه كل

طاقاته ليتبدد في الهباء، وأدركت أن كآبتي ستقودني إلى الهاوية عما قريب، وأنّ عليّ أن أتوقف لمراجعة حياتي قبل فوات الأوان حتى جاءني ذات يوم من يقودني إلى طريق آخر، ويقول لي: استيقظ فثمة دائماً نور في النفق....!

أسرة الضياء

كانت «كاثلين» أولى الإشارات التي أضاءت لي عتمة النفق ودهاليزه..!

بدت لي امرأة في منتصف الخمسينيات تكللها السكينة ويشرق وجهها بالابتسام حين دخلت مكتبتي ذات صباح، لتضع فيها نسخاً من كتابها الجديد «فن الحياة» الصادر بالإنجليزية، علّ هناك من يرغب باقتنائه، من الأجانب المقيمين في العاصمة..!

عرفت منها أنها أيرلندية وتعيش في «مأدبا» مع زوجها الأردني منذ عشرين عاماً. كانت تتقن العربية بلهجة أهل البلاد إلى حدّ بعيد، إضافة إلى تطعيمها غالباً بكلمات من الإنجليزية بدت لي مفهومة ومحبّبة إلى القلب..!

قالت كاثلين إنّ هذا الكتاب يمثل خلاصة تجربتها الروحية والأفكار التي تقتنع بها للاحتفاء بالحياة، والمستمدة من الفلسفات الهندية والبوذية، وبعض الديانات، وتجارب المعلمين الروحانيين الكبار في العالم، وقالت إنّ

لديها «خلطتها» الخاصة التي تستند إليها في مسيرتها، وهي تضيف إليها العناصر الجديدة التي تكتشفها يوماً بعد يوم من القراءات والتأمل والنقاشات والرحلات التي تقوم بها، فطريق المعرفة لا ينتهي مهما تقدمنا في العمر!

شعرت وهي تتكلم بأنّ جهة ما في هذا الكون قد أرسلت إليّ هذه المرأة بعد يباس وقنوط منذ رحيل الحسيني، ووجدتني أقول لها متحمساً بأنني أرغب في التعرف أيضاً على «خلطتها الخاصة» إن لم يكن لديها مانع بعيداً عن قراءة الكتاب لأنني لا أتقن الإنجليزية!

تهلل وجهها بالبشر، وتركت لي رقم تلفون منزلها، داعية إياي إلى حضور جلسات التأمل والمحاضرات الأسبوعية التي تقيمها في بيتها لمجموعتها التي أطلقت عليها اسم «The Family Of Light» أي «أسرة الضياء» أو النور، مشيرة إلى أنّ العدد محدود، وهي تضم رجالاً ونساءً معاً، وأنّ عليها أن تستأذن زوجها أولاً بشأن حضوري، ومطمئنة إياي في الوقت نفسه بأنه لا يمانع عادة في انضمام بعض من أرشحهم لجلسة تعريفية على الأقل، وبعدها يعود الأمر إليّ للمواصلة أو الابتعاد، وقالت لي وهي تغادر المكتبة كما لو كانت تستمع إلى تلك الأفكار التي تتلجلج حينها في رأسي:

التأمل هو أقصر الطرق إلى معرفة الذات أولاً والعالم

ثانيـاً، فكل شـيء يكمن في أعـمـاقنا دون أن ننتـبــه إليـه، وحضورك الجلسة ربما سيكون سبباً في تغيير حياتك إلى الأبد!

❖❖

أحـسـست بنفـسـي أكـثـر تقـبّـلاً من الماضي لأية أفكار جديدة أو حتى مناقشة المسلمات التي كانت لأربعين سنة تغلفني، ولا تسمح لي بالخروج من الشرنقة التي وضعت نفسي فيها.

قبل سنوات عديدة كانت حكايات الحسيني، وحتى ما حفلت به حقيبته من الأسرار تبدو لي جزءًا من فيلم سينمائي متقن، أو من كتاب للخرافات، وأنا في معزل عنها أتفاعل معها وقت القراءة أو المشاهدة، ثم لا ألبث أن أنسى كلّ شيء، وها هي كاثلين تريد أن تقودني إلى عوالم جديدة لم أعهدها من قبل، وتبدد لي شيئاً من الكآبة التي كانت تسكنني، فخلال لقائي الأول تعرفت على مجموعة أغلبها من النساء ما بين الأربعين والستين من العمر تقريباً، مع بضعة رجال وادعين معظمهم من الأجانب الذين يعملون في الأردن، وقدمت لي كاثلين زوجها الذي رحب بي بحميمية وسرور بدا لي صادقاً وعفوياً!

أجلستنا على سجادة ناعمة في صالة واسعة من بيتها المحفوف بحديقة بالغة الجمال، ينهمر ضوء الشمس فوقها

بكلّ هدوء، فيما جلست متربعة أمامنا تحدثنا عن طاقة «الريكي» وطريقة العلاج بها، وتلك هي المرة الأولى التي أسمع فيها عن مثل هذا النوع من الطاقات الذي قالت كاثلين إنّ معلماً يابانياً اسمه يوسوي هو أول من أعاد التعرف عليها في العصر الحديث، وأنه قضى فترة طويلة من حياته متأملاً وباحثاً عن طاقة الشفاء الموجودة في الكون والتي استخدمها بعض المعلمين الروحانيين الكبار والقديسين في الماضي حتى اهتدى إلى أسرارها، وألهم رموزها من معلم في التبت، ومن ثم نقلها لتلاميذه، وقالت إنّها تلقت «الريكي» عن طريق مرشد روحي هندي التقت به في بريطانيا، وأنها وسيلة لشفاء الذات والآخرين إضافة إلى أنها تساعد على الرقي الروحي، وأشارت إلى أنّ العديد من الديانات والحضارات القديمة عرفت أهميتها وكانت تمارسها، وأنه يمكن تسليط هذه الطاقة بواسطة مسّ جسد المريض مباشرة بباطن الكف أو إرسالها إليه عبر مسافات بعيدة حيث تخرج هذه الطاقة على شكل موجات كهرومغناطيسية من الكفين لتساهم في تعجيل شفاء المريض عبر تحقيق التوازن لجسده الأثيري!

بدا لي ذلك اللقاء طويلاً ومكثفاً، ولاسيما الجزء المخصص لتمارين التنفس، وأيضاً «التأمل العميق» من خلال إغلاق العينين والجلوس أو التمدد بشكل مريح، والانسياب مع الموسيقى الخاصة، والكلمات التي كانت

تقودنا فيها كاثلين شيئاً فشيئاً إلى الالتقاء مع أعماق النفس، وشعرت برأسي حينها ثقيلاً، كما لو أنني في حالة دوار، وأنا أطبق هذه التمارين، فهذه هي المرة الأولى التي ربما أغمض فيها عينيّ دون نوم، وأتنفس كلّ هذه الكمية من الهواء، وأنساب بكل سلاسة مع الموسيقى، وشعرت بغرابة هذه الطقوس عليّ، كما لو أنني في مجموعة سرّية قادمة من أعماق التاريخ، وفاضت عليّ مشاعر شتى، وأنا أغالب فتح عينيّ أو إغلاقهما، أو تخيل تلك الكرة العملاقة من الضوء وهي تعبر رأسي غاسلة كلّ خلايا جسدي من الطاقة السلبية وكل ما جرى معي في الماضي من أحداث سيئة، وجاءني خاطر كما لو أنني كنت أقف وحيداً أمام هذه المجموعة وعارياً من كل لباس، والكلّ ينظر إلي، فيما جسدي تثقله الثقوب، وتخرج منه الأدخنة السوداء والأفكار التي تتخذ أشكالاً بشعة، ففتحت عينيّ بهدوء لأرى كلّ من حولي بمن فيهم مرشدتنا يسبحون في ملكوتهم شبه نائمين، فاستحييت من نفسي وأغمضت عينيّ من جديد منتظراً أن تنتهي الجلسة ويصحو الجميع..!

❖❖

كان عليّ أن أكرر هذه التجربة مراراً فيما بعد، وأن تؤتي ثمارها يوماً بعد يوم؛ إذ أصبحت أكثر قرباً إلى هذه العائلة التي اختارت طريق صفاء الذات، وتغيير أنماط

التفكير والحياة، وخبرت ذلك الحب الإنساني العفوي من كلّ أفرادها بعيداً عن أية مصالح مادية ودون تمييز للون أو عرق أو دين.

كنت أحرص على حضور جلسات كاثلين ومجموعتها قدر الإمكان، وتوثقت علاقاتي مع أفرادها، وشعرت بتغير أحوالي إلى الأفضل، فقد صرت أكثر هدوءاً من ذي قبل، بعيدًا عن المزاج العصبي الحاد، وأقلعت عن التدخين نهائياً، وأصبحت أفكر بإيجابية أكثر تجاه الحياة بعيداً عن الكآبة وأدويتها، وأمسى نومي أكثر عمقاً بعد أن كاد الأرق يطيح بي، وعرفت بأنّ السرّ يكمن في التنفس العميق والتأمل، ومرافقة الناس الذين ينظرون إلى الحياة بحب وأمل، وعدت للتفكير مجدداً بما كان الحسيني حدثني عنه أو تركه في حقيبته عن الجسد الأثيري أو الكهرومغناطيسي الذي يحيط بجسدنا المادي، واستيقظت في أعماقي ذكريات البحث عن الكنوز، وتلك القوى الخفية التي قذفتني عالياً في الهواء، وبدأت نقاشات طويلة ومتشعبة مع رفاقي في أسرة الضياء عن الكون وأسراره، ولاحظت مرشدتنا أنني أكثر من الأسئلة مثل عطشان تائه وسط رمال الصحراء ينتظر شربة ماء وظلاً يفيء إليه، وقالت لي مرة:

أعتقد أنك مثقل بملفات ساخنة من الماضي، خبرات وتجارب وإشكاليات وأفكار...، ولهذا تحتاج إلى تفريغ

حمولتك شيئاً فشيئاً يا عزيزي لتتمكن من حمل شيء آخر!

الكأس الممتلئة لا مكان فيها لقطرات أخرى، فلا تركن إلى شيء وتعتقد أنك وصلت.

الحياة رحلة فيها محطات كثيرة تتزود منها كلّ مرّة بشيء مختلف...

ربما يبدو لك هذا الأمر متناقضاً، ولكن مسؤوليتك هنا في تكوين رؤيتك الخاصة التي تضيف إليها أو تحذف كما تشاء، لكن حذار من الاعتقاد أنك تملك الرؤية الصحيحة بحذافيرها من جميع الاتجاهات، وأنّ الآخرين تائهون ومغفلون، فنحن جميعا في طور التعلم وربما يستمر الأمر طويلاً...!

عودة لما تبقى
في حقيبة الحسيني

.....، وقال لي سيرجي مرة شارحاً:

«جسد الإنسان يتكون من نسبة عظيمة من الماء والباقي معادن، أي أنّه ينتمي إلى هذه الأرض، وهو يضم العناصر الأربعة الموجودة في الطبيعة أي: الماء والهواء والتراب والنار!

هذا لا يمنع من وجود كائنات عاقلة على كواكب أخرى تنتمي إلى عناصر تلك الكواكب أو حتى بعضًا من عناصرنا البشرية، ولا يمنع أيضاً أن يتم التواصل معها بطريقة ما.

نحن نحاول من جهتنا وهم يحاولون..!

هناك جسد آخر للإنسان من الطاقة الكهرومغناطيسية، وهو على هيئة جسده المادي تماماً ويتداخل معه، لكنه لا يرى بالعين المجردة، ولكن لدينا جهاز «أكرليان» يستطيع أن يصوّر هذا الجسد الأثيري، حتى الحيوانات والنباتات لها هالتها الخاصة، المحيطة بجسدها

المادي، ولكننا لا نستطيع أن نراها بأعينا لأنّ تردداتها الموجية عالية جداً وخارج قدراتنا البصرية..!

أقول لك شيئاً مهماً:

كلّ شيء في هذا العالم إما طاقة، أو مادة، وله ترددات معينة أو اهتزازات، أي طول الموجة، وسرعة ترددها، وهي التي تحدد شكله، ونحن لا نرى هذه الموجات، ولكن مثلاً إذا سلطنا تياراً كهرومغناطيسياً على مادة، ولنقل سيارة فإنها يمكن أن تختفي، لأننا نرفع من تردداتها بشكل لا يمكن للعين الإنسانية أن تراها، أنت تعرف كلّ هذه الأمور لأنها قريبة من تخصصك العلمي بوصفك طبيبًا..، ولكنك قد تكون من أولئك الذين يعتقدون أنها ممكنة فقط من الناحية النظرية، وهذا عين الخطأ..!

وأقول لك أيضاً إنّ الحضارات الأخرى لديها مركبات أو طائرات نحن نسمّيها الأطباق الطائرة تظهر فجأة وتختفي فجأة لسرعتها العالية جداً، ولقدرتها على رفع تردداتها أو إبطائها..!

لو كنت معنا حين دخلنا قبر «أوزوريس» ستشعر حتما بتلك الطاقة العالية التي بداخله، وهذا ما يحدث أيضا في أمكنة معينة داخل الأهرامات؛ إذ هناك تركيز هائل لها، وكانت فيما مضى على ما يبدو قابلة لأن تجعل الناس ينتقلون إلى مسافات هائلة باستخدام مسارات الطاقة

النشطة تلك التي تربط مناطق محددة على سطح الأرض، أي إن الأهرامات التي في مصر، والأخرى الموجودة بكثافة في مناطق أخرى من العالم كانت متصلة معاً بشبكة طاقة ما ذات حقب سحيقة، ويبدو أن فكرة الانتقال في الفضاء كانت مسألة قابلة للتطبيق ضمن مركبات لا نعرف عنها شيئاً، ولكن هناك حقب أخرى مظلمة مرت بها البشرية إذ تم تدمير هذه الشبكات أو تعطيلها، وعاد الإنسان إلى ما يشبه البدائية حتى القرن الماضي حينما بدأ باكتشاف الكهرباء وتطبيقاتها وبعدها التكنولوجيا الصناعية الحديثة..!

ومرّة سألت سيرجي:

هل تعتقد أن هناك مصدراً رئيسياً لهذه الطاقة التي تحدثني عنها، أقصد مصدراً عاقلاً وكبيراً لا ينضب وبلا حدود..!

وقال لي:

لا أحد يعرف الإجابة تماماً، ولكن دائماً هناك طاقات عليا كما يبدو، وتلك الحضارات الراقية والأعلى منا تتحدث دوماً عن حضارات وعوالم أكثر رقياً منها وهكذا.. لذلك لا أستبعد أن يكون هناك مصدر أساسي ومتطور جداً وعاقل.. ولكنك تعرف أنني شخصياً لا أؤمن بوجود «الإله» الذي روّجت له الديانات!

بصـراحـة يبـدو لـي أنّ البـشـر اخـتـرعـوا إلهـاً على مقـاسهم.. وألبسوه صـورتهم...، ولكن صرت أكثر يقيناً الآن بأنّ هذا التنظيم الدقـيق للعـالـم، لا بدّ له من قـوة حكيـمـة تقف خلفه، وتجعل المرء يتساءل دائماً عن طبيعتها، ومهما ابتـعدنـا عن فكرة وجـود إله، فـإنّها تظل تطاردنا سـواءٌ من خـارجنـا أو من داخلنـا، ولا مناص من مـحـاولة فـهـمـهـا إن استطعنا لذلك سبيلاً!

The Main Source

ذات يوم سألت كاثلين عن الإيمان والإلحاد وما تعتقد هي ومجموعتها عن الله، وإن كانت ترى أنه موجود أم لا، فقالت لي:

«ما نقوم به من تأمل أو جلسات تنفس يهدف إلى تطوير النفس، وجعل حياتنا على هذا الكوكب لها معنى وذات قيمة، ونحن في هذا الكون وحدة واحدة، لا نختلف في النوع وإنما في الوظيفة والدرجة، ويمكننا التواصل مع كلّ ما يحيط بنا من حجر أو شجر أو حيوان، إذا انتبهنا للقدرات الخاصة الموجودة لدينا أصلاً، ولكن أغلبنا مثل جواهر غطّاها التراب طويلاً فغاب بريقها...!

الريكي يا عزيزي ليس ديناً أو دعوة سريّة بل طاقة كونية متوفرة لمن يستطيع الاستفادة منها أو يتعمق في معرفتها.

هناك وفرة في هذا الكون لمن ينتبه إليها، وهي وسيلة فقط من أجل التعمق في معرفة الذات والتأمل فيها، لأنّ

هذا الأمر يقود بالضرورة للتعرف على الكيانات الأكثر رقياً التي تشاركنا في هذا الكون...!

إنها لا تتعارض مع الديانات أياً كانت، فهناك إشارات إلى أن طاقة الشفاء بوضع اليد على جبهة المريض، أو مكان الألم هي موجودة عندكم في الإسلام مثلاً، مع استخدام طاقة الكلمة أي الدعاء أو «الرقية»، وهي موجودة أيضاً في العديد من الديانات، وعرفها الفراعنة والهنود وجعلوا لها رسوماً في معابدهم، كما أنّ يسوع المسيح كان يشفي المرضى عن طريق اللمس أيضاً...!

كل التمارين التي نقوم بها خلاصة لمدارس مختلفة، ودورات عديدة ورحلات روحية وخلوات طويلة سافرت فيها قبل زواجي وبعده باحثة عن الحقيقة...!

وصلت جبال التبت وعشت أياماً مع الكهنة البوذيين، وأقمت في معابد هندية، وزرت ما تبقى من آثار حضارة المايا والسومريين والفراعنة وأماكن أخرى عديدة، وتبعت معلمين كثيرين ومتصوفة كباراً، ولا أقول لك إنني وصلت إلى الحقيقة بعد كلّ ذلك، فما أنا إلا تلميذة أتعلم، وكلها أنوار تفتح مدى الرؤية أكثر، فمن يحمل شمعة صغيرة في الطريق المظلم ليس كمن يحمل مصباحاً منيراً...!

وفي الحقيقة لدي قناعاتي التي توصلت لها حول هذا الوجود ومدبره لا مجال لأن أشرحها لك الآن، ولا هدف

عندي أن تتبع رأيي فهي في النهاية رحلة روحية خاصة يخوضها كلّ واحد منا بمفرده، وما يصلح لي قد يبدو غريباً عليك وغير مقبول، فأصدقاؤنا الذين رأيتهم في الجلسات أو تعرفت إليهم ينتمون لمرجعيات دينية مختلفة، وبعضهم بلا دين أيضاً، وكلّ واحد منهم ينهل من مصادر تبدو متعددة، وسار في رحلته الروحية وحيدًا، واكتفى بما يستطيع حمله، ولكنهم يتفقون جميعاً على أنّ ثمة طاقة عليا عاقلة تظلل هذا الكون، وهي نور لا ينطفئ، والذي نطلق عليه أحياناً «The Main Source» أو «النبع»، وكلّ الديانات تدعو إلى الإيمان بذات عاقلة تعزّ عن الوصف، تحدث عنها الأنبياء والقديسون والكهنة وكبار المعلمين، ويمكنك أن تدعوها «الله» إن أحببت حتى يطمئن قلبك لهذه التسمية!».

وتابعت كاثلين مقدمة لي مزيداً من الشرح:

أنا مثلاً قادمة من خلفية بروستانتية، وزوجي كاثوليكي، ولكنّنا لا نستطيع الآن أن نصنف أنفسنا كذلك، ولم يعد من الممكن حشرنا قسراً في طائفة أو دين بشكل تقليدي، فنحن نتغير كلّ يوم، وتتوسع قلوبنا وعقولنا لاستيعاب العالم كله دون إنكار ما نشأنا عليه، فالطريق الروحاني يا عزيزي يجعلك تعيد الانتباه إلى التعاليم الدينية التي نشأت عليها، وتفسرها بطريقة مغايرة لما يفهمه أتباعها، أو ما يفرضه

عليك رجال الدين الذين نصّبوا أنفسهم وسطاء بين السماء والأرض..!

ورأت كاثلين حيرتي قد تضاعفت، وكأنّها قد سقتني ملحاً أجاجاً بدل الماء الفرات، فليس الأمر بهذه البساطة التي تتخيل، ومن غير المعقول أن أصدق بعد بضع جمل كلّ ما جاءت به، وإن كان يبدو لي مؤثراً، ولكن ربما لا تعرف تلك المرأة التي تشع الطمأنينة من وجهها بأنني مركبة خربة تجرّ خلفها ما تبقى من تراث المادية الثقيل، وأنني ربما أحتاج إلى تعميق رحلتي الخاصة لا الاستماع إلى رحلات الآخرين وتجاربهم، فقد مللت كل ما قرأت أو سمعت، وكأنه دروس ثقيلة عن وجوب الإيمان تلقى فوق رأسي، غير أني شعرت بأنّ كلامها ينخر فيما تبقى لي من جدر أحتمي خلفها، ويساهم مع ما سبق لي من التجارب مع الحسيني وقراءاتي الخاصة، وتلك التغيرات التي طرأت عليّ في أن أفكر مطولاً بكلّ ما تقول، وأواصل رحلتي في فصولها الأخيرة!

جسدي الآخر

تغيبت عن جلسات «أسرة الضياء» كثيراً، وانغمست في تفاصيل الحياة اليومية واشتراطاتها المغرقة، وكأنّ كاثلين قد أدركت حيرتي ونكوصي إلى شرنقتي من جديد، وربما خشيت عليّ مثل طبيب ماهر، أن أعود للتورط مجدداً بالتدخين وحبوب التخفيف من الكآبة، وأفكاري المشظّاة، ولهذا وجدتها ذات يوم تزورني في المكتبة، ووجدتني بكل عفوية أنتظرها بترحيب غامر، ورغبة جليّة للطمأنينة.

ومثل كأس تفيض بما فيها رحت أحدثها بلا توقف عن أفكاري التي جئت بها من روسيا، وما قبلها حيث الإيمان التقليدي الوراثي، ونظرتي إلى الكون وما جرى لي أثناء البحث عن الكنوز الدفينة، وإن كان لديها تفسير لذلك، وحكايتي مع الحسيني وما تركه لي في حقيبته، وكنت أتدفق بالكلام بطاقة عجيبة، والمرأة مصغية إليّ بكلّ حواسها، وشعرت أخيراً بأنّ حملي الثقيل قد انزاح عن صدري، وأنا أودعه كاثلين لعلها الأقدر على حمله عنّي من

جديد، وشعرت براحة عجيبة، وقالت لي بعد أن هدأت:

كل ما بحت به اليوم شيء مدهش ومهم جداً بالنسبة لي، لأنه يثبّت ما عرفته في رحلتي الطويلة أيضًا، ولهذا أودّ أن أخبرك بأشياء أخرى قد تبدو لك أعجب من الخيال، أما الذي حدث معك فوق الشجرة ومطاردة قوى خفية لك، وما يقولون إنه من فعل الجنّ، فأنا لست من المهتمين بهذه العوالم، وإن كنت لا أنكر وجودها، ولكنّي سأعرّفك على من يحل لك اللغز قريباً حين يزورنا «الأب حنّا» وهو من الضالعين في تفسير مثل هذه الظواهر..!

وأما معرفة الله بالعقل فكلّ ما نقوم به هو جزء من العلم الذي لا يناقض العقل، ولمعلوماتك فنحن البشر كائنات «بيولوجية كهرومغناطيسية»، فمن جهة نحن لحم ودم أي مركبات وعناصر مادية معروفة تنتمي إلى هذه الأرض، ومن جهة أخرى لدينا جسد نوراني لطيف نسخة طبق الأصل عن الجسد المادي ولكن لا تراه العين، وهو عبارة عن مجال كهرومغناطيسي، يتبادل التأثير مع الجسد المادي، وهذه معلومات نقلها لك صديقك الحسيني في أوراقه كما أخبرتني، إذ إن الروس اكتشفوا فعلاً طريقة لتصوير هذا الجسد الأثيري مبكراً، واعلم أنّ الموجات التي تستطيع حواسنا المادية إدراكها تبدأ فقط من البنفسجي وحتى الأحمر، ولهذا لا نرى الأشعة تحت الحمراء ولا فوق

البنفسجية، وهناك فتحات لدخول الطاقة إلى الجسد الأثيري يسميها الهنود «الشاكرات» تبدأ من أعلى الرأس وتسّمى «شاكرا التاج»، وهي تُرى من بعض من لديهم قدرة على «الاستبصار»، وإذا لاحظت يوماً تلك الأيقونات التي كانت ترسم قديماً للقديسين والصالحين، فإنّ هناك ما يشبه التاج الذهبي فوق رؤوسهم، وهذه هي الهالة التي تحيط بالرأس، فأجدادنا كانوا أكثر صفاء وقرباً من الطبيعة وأكثر شفافية، وليسوا مثلنا اليوم مشوشين بالتكنولوجيا، وكلّ الموجات التي تطلقها الأجهزة من حولنا، والطاقات السلبية، وهناك ما يسمى بشاكرا العين الثالثة وهي مواجهة لمنطقة الجبهة وتقع بين العينين، وقد يرى بها بعض من لديه قدرة على الاستبصار وهو مغمض العينين في مراحل متقدمة من تأمله، وهناك فتحات أخرى كثيرة، وجميعها تتأثر بالألوان المختلفة وبالروائح وبالكلمات والأفكار فنحن كائنات لها ترددات موجية معينة، وتسبح في كون من الطاقة بشقيها السالب والموجب، وليست منفصلة عن هذا العالم إنما هي من ضمن نسيجه ومشتبكة معه تماماً..!

أرأيت إذاً كيف يمتلك بعض الأشخاص قوى أخرى مثل الحاسة السادسة، والتخاطر ومعرفة المستقبل أو الماضي لأنّ هذه القدرات مخلوقة أصلاً معنا، وما علينا فقط إلا استكشافها أو تنشيطها أو على الأصح تذكرها...!

لو اطلعت على تراث أصدقائك الروس وتجاربهم في هذا المجال منذ العشرينات من هذا القرن لذهلت، ففيما كانوا يروجون للعالم المادية الإلحادية، ويقاتلون الناس لنشرها من جهة بحجة الثورة الشيوعية للشعوب، كانوا أيضاً يستكشفون الطاقات الروحية للإنسان ويؤمنون بوجودها وإمكانية تطويرها، لكنها بقيت سرية وللخواص فقط، وقد أجروا في العشرينيات مثلاً اتصالاً بالتخاطر بين أشخاص تفصل بينهم مسافات شاسعة ومحيطات، وبدون أية أجهزة اتصالات مادية..!

تركتني كاثلين ذلك اليوم أتخبط في دهشتي من جديد، وأحسست كما لو أنني مثل كمبيوتر، قد علق فجأة لأنه يحتاج إلى تلقيمه بالمعلومات أولاً بأول حتى تترتب بداخله ويستوعبها بكلّ هدوء، وقررت لوهلة أن أقيل عقلي من التفكير ولو لشهر على الأقل، قبل أن أصاب بالانهيار، ولكن هيهات إذ لم تمر سوى أيام معدودة حتى اتصلت بي كاثلين تخبرني بوصول «الأب حنّا» وأنه بانتظاري...!

أبونا الذي في الناصرة

كنت أتخيله كهلاً يلبس بذلة الكهنة السوداء، وله لحية يغطيها الشيب مع صليب فضي ضخم يتدلى فوق صدره، ونظارة سميكة على عينيه، لكنّ الأب حنّا فاجأني بأنّه ربما يكون من جيلي أو يصغرني بسنوات قليلة، ووجدته بلباس عادي لا يوحي بما عهدته من القساوسة ورجال الكنائس الذين عرفتهم في بلادي، أو حتى شاهدتهم في أفلام السينما..!

قالت كاثلين مقدمة إياه لي:

«الأب حنّا الذي حدثتك عنه، وهو صديق للعائلة ويأتي من الناصرة إلى عمان بين الحين والآخر، فنحبّ أن يزورنا ليبارك لنا البيت، ونقضي برفقته أوقاتاً رائعة....».

وشعرت بقربي من الرجل، وهو يرحب بي أو يجيب عن أسئلتي في جلستنا التي امتدت طويلاً، موضحاً جانباً من سيرته الروحية، أو حتى ليضيف ألغازاً جديدة لكلّ ما عندي، وعرفت من حديثه أنّ أحواله قد تغيرت فجأة ذات

ليلة، وهو في الثالثة عشرة من عمره؛ إذ رأى في المنام المسيح يباركه، ويمنحه بعض القدرات، منها شفاء المرضى من بعض الأمراض المستعصية، وطرد الأرواح الشريرة التي تسيطر على الناس، وأنه حدّث والدته بالأمر حين استيقظ في صباح اليوم التالي فطلبت منه أن يكتمه، ولا يحدّث به أحدًا حتى لا يثير الناس عليه، ويغضب رجال الكنيسة أيضًا.

وقال لي:

ظللت أتبع نصيحة أمي حتى وصلت سنّ الثلاثين من عمري، وكدت أن أنسى تلك الرؤيا مع انغماسي بتفاصيل الحياة، لولا أنها عادت إليّ مجددًا، فعرفت بأنّه آن الأوان لكي أعمل ببركة يسوع المسيح، وأساعد الناس على الشفاء من بعض الأمراض، أو أنقذ بعض أولئك الذين وقعوا تحت سيطرة الأرواح الشريرة، والآن لدي كنيسة في الناصرة أجمع المؤمنين بها كلّ يوم أحد للصلاة، ويأتيني الناس من أمكنة عديدة، وحين أبدأ في الموعظة أشعر بأنّ هناك من يهمس في داخلي فأغمض عيني وأستمع للصوت جلياً:

«...تستطيع يا حنّا الآن أن تشفي ببركة يسوع المسيح تلك المرأة المصابة بالشلل، والتي تجلس على الكرسي المتحرك، وتلبس الفستان البني.»

فأقول أمام الجموع مشيراً إليها:

أيتـهـا المرأة المصـابة بالشلل الجـالسـة على الكرسي المتـحـرك هـناك تسـتطيـعين النهـوض الآن مـعـافـاة ببـركـة صاحب المعجزات يسوع المسيح!

وتقوم المرأة تمشي فيتهلل وجه الناس عجباً وحبوراً..!

وأنا لا أفعل هذه الأمور من تلقاء نفسي إنما من فعل تلك الروح العظيمة التي تساندني، وما أنا إلا وسيلة فقط لا أدعي لنفسي شيئاً، وإن خالطك الشكّ في ما قلت لك تعال إلى الناصرة متى تشاء، وشاهد بنفسك!

وتدخلت حينها كاثلين لتقول إنّها شاهدت بأمّ عينيها ما قاله الأب حنّا، وأنها ظاهرة محيرة لها، ولا تفسير لديها بشأنها لأنها لا تقتصر على أتباع دين معين، ولكنها تعتقد أن بعض المعلمين الروحانيين الكبار، وعلى رأسهم الأنبياء لديهم قدرات خارقة في الشفاء أو غيرها من المعجزات يمنحون بعضاً منها لأناس يعيشون بيننا، أو يعملون من خلالهم، ويمنعونها عنهم أيضاً إن أساؤوا استخدامها، والمتصوفة يسمون هذا «التصريف» أي منح الصلاحيات للحصول على «الكرامات».

وتابع الأب الناصري:

أعتقد أنّ ما تقوله كاثلين صحيح، وهناك آية في إنجيل يوحنا تقول:

«الحق الحق أقول لكم من يؤمن بي فالأعمال التي أنا أعملها يعملها هو أيضاً..» فهي هبة إذن لكي يدخل الإيمان إلى قلوب الناس، فليس الكلام كالمشاهدة..!

وقال مستدركاً بحرقة:

المشكلة أن الكنيسة تحاربني، وتعتبر هذه الأمور من الشعوذة، ولا يجوز أن تكون وسيلة لوعظ الناس وإدخالهم إلى الإيمان، ولهذا فأنا كالمنبوذ بالنسبة لهم، ويحاولون تشويه سمعتي كما لو أني ساحر أفّاق، وليس هدفي إلا مساعدة الناس والتخفيف عليهم، لست ضد الكينسة البابوية وما تقوم به فلها دورها، ولكنها ضدّي تمامًا...!

وتابع شارحًا لي وضعه:

لم أدرس الكهنوت ولم أرسّم قسيساً، ولكن الناس يحبّون أن ينادوني بالأب مثل رجال الدين الآخرين، وحين أقف أمام الجموع التي تأتي للصلاة أتدفق بكلام يسقي عطش التائهين والباحثين عن السكنية في بيت الرب، ولا أدري كيف يتدفق على لساني بل كأنه يملى عليّ من ملاكي الحارس، إضافة إلى إشاراته لي كي أساعد بعض المرضى والمعذبين.. وذلك جلّ ما أبغيه..!

ووجدتني أحوّل حديثي إلى تلك العوالم الخفيّة التي صادفتني ذات مرّة، وإن كان يرى أنها موجودة فعلاً أم هي

من الأوهام التي انتابتني، فهذا أصلاً ما جئت من أجله، فأغمض الأب حنّا عينيه قليلاً صامتًا فيما يشبه الصلاة، وقال لي:

ما جرى معك تلك الليلة حقيقي، ولم يكن من وحي خيالك، فأنت اقتحمت ومن معك كنزاً محروساً منذ آلاف السنين من هذه الكائنات المخفية عن أنظارنا لأنهم يعمّرون طويلاً، ولهذا لا يستطيع إنسان أن يأخذ أي شيء من هذا الكنز إلا ضمن ظروف خاصة تتطلب السيطرة على تلك الأرواح أو إقناعها بالتخلي عنه، وضمن طقوس معينة تعرفها تلك المرأة التي كانت برفقتكم كما يبدو لي، ولهذا لم تنتبهوا لتوسلاتها فتمت معاقبتكم جميعاً، ويجب أن تشكر الله الذي هيأ لك من أنقذك في تلك الليلة، وكان من الممكن أن تصاب بالجنون مثلاً أو ربما تقتل..!

نعم هناك أرواح شيطانية أو شريرة موجودة بيننا على هذه الأرض، ولا تهمّ التسمية والأوصاف التي تطلق عليها، المهم أنها تسعى لأذى بعض الناس، وتسيطر عليهم وتسلبهم إرادتهم، وهي قوية جداً، وترانا ولا نراها، ولكنها أيضاً مراقبة من قوى نورانية تحرس الناس، ولا تستطيع أن تؤذي أحداً إلا إذا كان ضعيفاً أو تائهاً دون إيمان يحتمي به، أو معلم يرافقه في الطريق، وأيضاً إن حاول بعضهم الاتصال بها أو معرفة أسرارها أو العبث معها، وهناك بعض الناس

الذين يسمحون لها بالإقامة في أجسادهم، أو تلبسهم طواعية أي يبيعون أنفسهم للشيطان، وأنا أعطاني ربي قدرة التمييز ومعرفة المسكونين بهذه الأرواح وطردها من أجساد من يأتي منهم ويطلب حقيقة أن يتشافى منها، وأنا أتلقى الكثير من الناس المتعبين وهم من جنسيات مختلفة، وديانات متعددة، بعضهم يكون واقعاً تحت هيمنة هذه الكائنات التي تستنزفهم، وغالباً ما يفيقون من تلك الحالة التي تستلبهم ويعودون إلى الإيمان فلا تقترب منهم والأمثلة كثيرة ومصورة بالفيديو أيضاً إن أردت المشاهدة، وهناك آخرون يتخيلون هذه الأشياء فقط وهم مرهقون نفسياً، أو مصابون بالوساوس القهرية والكآبة المرضية، ولا أفعل لهم شيئاً غير الدعاء، وأن يؤمنوا بالله، ويراجعوا الأطباء المتخصصين..!

وبالطبع فإني لا أستخدم هذه البركات لإعلان الحرب خبط عشواء ضد تلك العوالم، بل في حالات معينة أقتنع بها أو تملى عليّ، لأنّ بعض البشر للأسف أشد ضرراً من الشياطين ويستحقّون ما يحدث عقاباً لهم..!

أحسست بأن الأب حنّا أزاح عن صدري صخرة كبيرة، وكشف لي بعضاً من الأشياء التي ربما تدور من حولي ولا أنتبه لها، وعن تلك العوالم الخفية التي تتربص بنا، ولكنّي كنت بين المصدّق والمكذب، ورحت أمطره بالأسئلة المتشككة

التي فهمها وباح لي بأجوبتها بكلّ كرم، ووجدت كاثلين تتدخل في حوارنا من جديد كمن يغلق الستارة على الحكاية:

لقد نبّهني الأب حنّا إلى أشياء جديدة لم أكن أفكر بها بهذه الطريقة من قبل، فأنا لا أنكر إمكانية وجود مثل هذه العوالم على أساس علمي أيضاً، ففي النهاية الأمر مرتبط بالترددات الموجية لهذه الكائنات التي قد يكون بعضها نورانياً وبعضها يكون ظلمانياً، لكننا نشعر بها إن أرادت أن تتصل بنا لسبب أو لآخر سواء أكان شراً أم خيراً، لقد قرأت كتاباً يختص بهذه التجارب اسمه «فن الحلم» لكاتب من البيرو عاش في أميركا طويلاً يدعى «كارلوس كاستانيدا» جرّب الدخول إلى هذه العوالم الغريبة، وكاد أن يختطف هناك لولا أن أنقذه معلمه الشامان اليخاندرو...!

ولكن أودّ أن أقول لك شيئاً ربما يريح بالك في النهاية: حاول أن تنسى تلك الذكريات السيئة التي مرّت عليك، وأن تركز فقط على الجانب المضيء من هذا العالم، ففي النهاية نحن نصوغ العالم المحيط بنا من خلال طريقتنا في التفكير...!

وأردفت متابعة:

من الواضح أنك تغيرت كثيراً، وأصبحت تفكر بطريقة إيجابية، وتركت عاداتك المرهقة لروحك ولجسدك، ولكن

أعتقد أنك بحاجة إلى الكثير من الراحة بعد كلّ هذه القراءات واللقاءات والنقاشات.....، فكّر بالسفر والاسترخاء قليلاً ولو إلى بلد مجاور، كنوع من التغيير وشحن الجسد والروح بطاقة جديدة...!

وكانت كاثلين صادقة في وصفها لوضعي، فقد أحسست بأنني عالق في نقطة الصفر، ولا أستطيع التفكير مجدداً، لا بالمضي إلى الأمام ولا بالرجوع إلى الخلف، ووجدتني فقط أفكر في نصيحتها لي بالسفر، وجاءني وأنا عائد إلى بيتي في الطريق خاطر يقول لي:

سافر إلى حلب...!

نور وظلمة

قُدّر لي أن التقي الأب حنّا مجدداً قبل عودته إلى الناصرة، وكانت كلماته ما تزال ترنّ في رأسي، فهذه هي المرة الأولى التي أتعرف فيها وجهاً لوجه على أحد عرف جانباً من هذا العالم غير المنظور، وقاومه دون أن يرفّ له أيّ جفن...!

أخبرني أشياء كثيرة عن عالمه، وتعامل معي كصديق يعرفه منذ أمد طويل، وعرفت أنّه يأتي إلى عمّان بين الحين والآخر بناء على دعوة من بعض الشخصيات المهمّة وكبار الأغنياء، ليقدم لهم الاستشارات الروحية بشأن عملهم أو ما يخصّ حياتهم، وأيضاً لحل الأشياء الغريبة التي قد تحدث لهم، وقال لي بأنه لا يستطيع أن يبوح بأسرار هؤلاء ولا بأسمائهم ومراكزهم، لكنّه يحدثني عن بعض هذه المسائل التي يتعرضون لها حتى يطمئن قلبي ربما لوجود الكثير ممن يعتقدون بهذه الأمور، وإن كانوا لا يظهرونها للناس، وقال إنّ بعضهم يتعرض إلى أعمال

السحر، أو تسليط الأرواح الشريرة على أولادهم وزوجاتهم، وهناك من يسمع أصواتاً مزعجة في بيته، أو من يحترق جزء من أثاثه دون سبب، وثمة من يقع التفريق والبغضاء والطلاق في عائلته.. وأشياء كثيرة قد لا تصدقها أساساً، تبقى غالباً من أسرار تلك البيوت لا يطلع عليها أحد...!

وعجبت أنّ أشياء مثل هذه تحصل لدينا وعند بعض المسئولين، وأنهم يصدقون مثل هذه الأمور في السرّ ويحاربونها جهاراً، فطمأنني الأب الناصري بأنّ النساء هن أكثر إيماناً بهذه المسائل من الرجال وغالباً ما يقنعن أزواجهن بها، كما أن الأمر لا يقتصر على هؤلاء بل هنالك سفراء أجانب وعرب، ورجال أعمال كبار أيضاً يتصلون به للمساعدة، فأخباره تتناقل شفاهية بينهم، وقال إنّ بعض الناس يسيئون فهمه فهو ليس مشعوذاً ولا منجّماً ولا ساحراً، وللأسف فإنّ الناس يخلطون هذه الأمور بعضها ببعض، ولا يفهمونها، وغالباً ما يعتذر عن القيام بمساعدة من يتصل به حين يسيء تقدير تلك الروحانية التي تسانده ويظنه من تلك الفئات الضالة المشعوذة..!

وسألته حينها متشككاً لماذا يلجأ كلّ هؤلاء إليه وبعضهم لديه القدرة على أن يخصص كتيبة لحمايته، أو يمكن أن يدفع أموالاً طائلة للعلاج في أرقى مستشفيات العالم مما يصيبه؟

صمت طويلاً دون غضب متفهما تشككي، وأحسّ كما

لو أنه يبدأ معي من الصفر دون جدوى ثم قال:

أمامك طريق طويلة لتقطعها إن أردت المعرفة، وما تزال أيضاً فريسة سهلة لتلك القوى التي قد تنقضّ عليك مجدداً إن بقيت بلا إيمان تستند إليه، وأودّ أن أقول لك إنّ كبار رؤساء الدول والقادة في العالم يؤمنون بهذه الأمور، ويعرفون أهميتها وبعضهم يعتمد على عرافين وسحرة ومستشارين، يستخدمون لهم الأرواح المظلمة، وليست النورانية وهي تقدم خدماتها إليهم مقابل خدمات أخرى منهم تضرّ البشرية، أو تؤذي أناساً كثيرين، أو تدنس المقدسات السماوية، ولهذا فإنهم يتحكمون في وسائل الإعلام من أجل الاستهزاء بمثل هذه العوالم وتتفيهها أمام الناس حتى يحتكروا الحقيقة لأنفسهم، ويجعلون غيرهم غارقين في حمأة الحياة المادية اليومية بعيداً عن الإيمان بالروحانيات، وإمكانية وجود عوالم أخرى نورانية وظلمانية بحيث يعرف الناس الفرق بينها، وما أسهل أن يتم اتهام الواحد منا بالجهل والتخلف والبعد عن العقل والعلوم الحديثة إن هو صدق حكايات الشياطين ووجود عوالم أخرى من حولنا..!

الجانب المظلم يا عزيزي يقوم بدوره، والجانب النوراني يردّ بطريقته، إنها حرب شعواء بين النور والظلمة لا يراها الناس بل أحياناً يكونون أطرافاً فيها دون وعي..!

السحرة يحوكون مكرهم وثمة من يبطله، والشياطين تستوطن الأجساد وهناك من يتصدى لها، أرأيت كيف تسير الأمور...؟

ووجدتني مثل أبله يستمع إلى أمور لا يدري عنها شيئاً، وتبدو قادمة من عالم الخيال، فاستنهضت فجأة معارفي في الدين الذي فتحت عيني عليه في بيتنا حين كنت طفلاً وفي المدرسة فيما بعد، وبدت لي بعيدة وغائمة ولا تسعفني في شيء لأني هجرتها طويلاً دون إيمان، وأحسست بأني ضائع لا أستند إلى غير الهباء يحيط بي من كل جانب، ورأسي يطنّ بخليط هجين من أفكار متضاربة راكمتها عبر الأعوام الأربعين التي انقضت، وشعرت بدقات قلبي تشتد، ورأيت لوهلة كما لو أن أفواهاً كثيرة تنبت أمام ناظري وتتكلم بلغات شتى، وكلّ واحد يجادل عن رأيه:

رأيت الحسيني، وسيرجي، وأمي، وأولغا، والأب حنّا، ومعلم التربية الإسلامية في المدرسة، وكاثلين، وأبي، والمرأة المغربية، وشيخ المسجد في قريتي، وطلبة جامعة لينينغراد، والدكاترة، والحزبيين الماركسيين، وجماعة «الصاعدون»، ورجال الأمن، وأهالي ميسرة، ومدير المدرسة،....

رأيت وجوههم كلها تدور من حولي، وكلماتهم تقضم أذني، فيما دوار كاسح يهجم عليّ، وعرق شديد يسحّ من كلّ جسدي وأنا أغيب شيئاً فشيئاً في بياض ساطع ليس له حدود....!

الطريق إلى المعلم
(حلب - ربيع ٢٠٠١)

يمّمت شمالاً متبعاً خاطراً مرّ بي مثل وميض، وجلّ ما أخشاه أن يكون خلّبياً..!

جئت «حلب» على غير هدى، فأنا لا أعرف هذه المدينة من قبل، ولا إلى أيّ الجهات تفضي شوارعها، ولست خبيراً بأسواقها المتشعبة، ولا بقلعتها الرابضة بقوة فوق هضبة راسخة، ولا صديق لي أعرفه هناك فيؤنسني..!

لكنّي قلت هي رحلة لغسل العينين مما ران عليهما من الصور المتكررة كلّ يوم، وهي فرصة للراحة ولو قليلاً من تعب قديم في مدينة يقال إنّ من يدخلها يحبّها، ولا يرغب بمفارقتها، وربما أجد أجوبة عن تلك الأسئلة التي تنقضّ على ما تبقى عندي من سكينة.

جاءتني تلك الخواطر دفعة واحدة، وأنا أقضي يومي الأول في فندق تبدو العراقة والقدم من تفاصيله، يطلّ على ساحة واسعة وسط المدينة، ومن نوافذه بدت لي الحديقة العامة، وغير بعيد عنها ينبض إيقاع الحياة بشدّة في أسواق

العزيزية والتل، مؤملاً النفس بأن أكتشف المدينة ومعالمها القديمة في ثلاثة أيام، مدة إقامتي، فثمة أشغال كثيرة تنتظرني في عمّان.

ربما لأول مرة في حياتي أنقاد لهاجس غريب كي أصل إلى هذه المدينة، وعجبت من نفسي الأمّارة بالإنكار، كيف تبدّلت أحوالها، وصارت أكثر تقبلاً وسلاسة لكي تلج إلى تلك العوالم الغريبة والغامضة التي ما تنفك خيوطها تتجّمع أمامي يوماً بعد يوم...!

خلال المساء الأول لي نصحني موظف الاستقبال في الفندق بزيارة أحد الحمامات الشعبية التي تشتهر بها المدينة منذ أزمان قديمة لعلّه يخفف عنّي من إرهاق السفر، وأستقبل صباح اليوم التالي بكلّ نشاط، وحسناً تبعت نصيحة الرجل، فقد عدت من تجربة جديدة لإنعاش الجسد المتعب في «حمّام يلبغا» الذي يعود إلى قرون عديدة ماضية منذ بناه الأمير سيف الدين الناصري، وما يزال مقصداً لأهل المدينة وضيوفها إلى اليوم.

نمت ليلتها بعمق لم أشهده منذ سنوات عديدة، ووجدتني أستيقظ متحمساً ليوم طويل أكتشف فيه القلعة، التي كانت تطلّ على سهول فسيحة زحفت إليها البيوت والعمارات بكثافة، وتخيّلت وأنا أتفحص تفاصيلها بدقّة تلك الشعوب التي مرّت عليها من عرب وعجم، ومحبّين وغزاة،

فكم دقّت أبوابها الرماح ودكت أسوارها المنجنيقات، وكم من الخيول هوت إلى خندقها دون رجعة، وكم دوّت في قاعاتها الأشعار أو حيكت الخطط والتدابير، وهي في مكانها راسخة وشامخة.

من هناك ولجت إلى الأسواق القديمة المسقوفة والخانات والتي يطلقون عليها اليوم سوق (المَدِيْنة) وهي تبدو مثل شريان دافق بالصخب والحياة، وفيها من كل صنف من البضائع التي تحمل بعض الأسواق أسماءها، مثل: الزرب، والبلستان، والسجاد، والخيش، والقطن، والصابون، والقماش، والدرّاع، وثمة ما هو مخصص للسراجين، والحبّالين، والعطّارين، والنحّاسين، ولمعت في عيني وأنا أتجول مندهشاً ألوان الأواني الزجاجية، والقوارير المنفوخة من كلّ شكل، والمصوغات الذهبية، والأحجار الكريمة، والخواتم الفضّة، والمسابح الملونة، والقلائد والأساور، وتحف الزينة الصغيرة المتقنة، والأثاث الخشبي المعشق بالصدف والعاج مما يسحر الأبصار، وشممت روائح العطور التي تعبق في الأجواء، وتذوقت بعضاً من ألذّ الحلوى المحشوة بالفستق الحلبي واللوز، وتلمست الملابس المعروضة منها المقصّبة والمطرزة والأطالس والقطنيات والصايا والآغباني والعباءات، وتعجبت من مهارة حرفيي المدينة في تشكيلات السجاد اليدوي والبسط والمفارش وكلّ ما رأيت من أثاث..!

وبينما كنت مأخوذاً بكلّ هذا السحر، أيقظني صوت تاجر من السوق، وهو يرحب بي ويسألني بودّ إن كنت أبحث عن شيء محدّد للشراء فيساعدني..؟

بدا لي الرجل يخطو نحو السبعين، بوجه صبوح، ولحية بيضاء ناعمة، وعلى رأسه عمامة قرمزية، وكما لو أنه شعر بغربتي عن المكان، وعرف حيرتي، فتجّار الأسواق هم الأقدر على تمييز كلّ من يمشي فيها، إن كان من أهل هذه الديار أو من الأغراب والسياح الذين جاءت بهم الأقدار..!

تبادلت مع الرجل جملاً قصيرة سرعان ما جعلته يصرّ على دعوتي لأشرب الشاي معه، وأرتاح من التجوال قليلاً في حانوته الواسع الذي يبيع فيه السجاد من كل حجم ونوع ونقش، والذي ينبسط على الأرض أو يتدلى من السقف بترتيب متقن.

قال لي إنه يحبّ الأردن وأهلها، فقد زارها كثيراً في السابق لأنّ له أختاً متزوجة هناك من رجل في «إربد»، وإنّ مشاغل الحياة وكبر سنه جعلته ينقطع عن الزيارات المنتظمة، ويكتفي برؤيتها حين تزور حلب أحياناً، فقد كبرت هي أيضاً، وأصبحت لها عائلة هناك تنشغل بها!

وأضاف من غير تقديم:

أشعر أنّ لبلدكم خصوصية روحية يا بني وباركه الله

في ثلاثة مواضع في القرآن الكريم!

ووجدتني أميّاً لا أكاد أتذكر من القرآن غير السور القصار والفاتحة، فأحسست بوجهي يحمر خجلاً، ثم إني غير مهيأ لمثل هذا النقاش أساساً، ولأول مرة في حياتي أسمع من يذكر هذا الأمر، وتمنيت في سرّي لو يتوقف هذا الشيخ الحلبي، ويغير الموضوع، لكنه استدرك بالقول مخففاً من حرجي:

الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم أسري به إلى المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله، كما نجّا الله سيدنا إبراهيم ولوطاً عليهما السلام إلى الأرض التي بارك فيها، وانتبذت السيدة مريم عليها السلام من أهلها مكاناً شرقياً حينما التقت بسيدنا جبريل، وكل هذه الإشارات تشمل الأردن والله أعلم!

استحييتُ من صمتي، لأني أكاد أسمع بمثل هذه الآيات لأول مرة، فقد هجرت القرآن منذ سنوات طويلة، وأذكر أنني أكملت قراءته مرة أو مرتين في بعض أشهر رمضان، حينما كانت أجواء الإيمان تشيع في القرية وبين كلّ أهلها، ونتسابق نحن طلبة الصفوف الإعدادية على عدّ الأيام التي نصومها أو السور التي نقرأها.

وبدوت مثل طفل في الصف الأول الابتدائي يلثغ بأولى حروف الأبجدية أمام هذا الرجل الذي يفيض وجهه بطاقة

عجيبة من القبول لا أستطيع تفسيرها، ولا يكاد لسانه يتوقف عن التسبيح والذكر، وكما لو أنه شعر بارتباكي، وأنني أنوي المغادرة لاستكمال جولتي، فوجدته يصرّ على دعوتي للعشاء مساء الغد في بيته، وقال لي إنّ أحد أولاده سيأتي بسيارته ليأخذني من الفندق الذي أقيم فيه، وأنه لا مجال للاعتذار لأنني ضيفه، ووجدتني دون كثير تردد وارتباك ألبي الدعوة شاكراً للرجل كرمه، وشعرت كما لو أنه يمتّ لي بصلة قرابة ما لا أفهمها، وأنني التقيت به من قبل.

وقال لي وهو يشدّ على يدي مودعاً، وتاركاً إياي في دهشة جديدة:

أنت يا بني لم تأت للشراء من السوق أو للتعرف على حلب.. أنت تبحث عن أشياء أخرى... ربما نتحدث عنها غداً طويلاً..!

أيقنت في تلك اللحظة مصدوماً أن لا شيء صدفة في هذا العالم، فقد عرفت للتوّ لم أنا في حلب دون غيرها، وأن عليّ أن ألج إلى عالم جديد لعله يروي ظمئي المتواصل، ويجيب عن أسئلتي الحائرة، وأن هذا الشيخ الذي اخترق ببصيرته أسراري المقفلة سيقودني إلى ركن شديد آوي إليه!

❖❖

كـان بيت مـضـيـفي يقع في إحـدى ضـواحي المدينة الجديدة على ما ظهر لي، وهو أقرب إلى ريفها، وكان بالغ الكرم في مـائدته، وكنت أمنّي نفـسي بأن يكون كذلك في بوحـه لـي، فـأنا بالكاد نمت ليلة الأمس، مـفكراً بكلمـاته، ومتخيلاً ما سيفيض به عليّ من الأسرار، وكنت قد قضيت يومي مـتـجـولاً في الأسـواق الجـديدة، لعلي أشـتـري بعض الهدايا ذكرى من هذه المدينة حتى يأتي موعد الدعوة.

لكن الرجل ظلّ صامتاً.

ولم يكن لـي مناص غـيـر أن أبدأ بشـذرات من حكاياتي أرويها له في بحثي عن الحقيقة خلال رحلتي الطويلة، وبدا لي مـا قلته مـقطّع الأوصـال عن سـيـاقـه فـهـو يحـتـاج إلى جلسات طويلة.

كـان الشيخ يصغي إلـيّ بكلّ حواسـه، غـيـر أنه لـم يعلق علـى شيء مما قلت، بل تركنـي أسـتنفـد كلّ مـا أريد قـوله، وعـرفت بعـد أن تناولنا الطعـام من كـلامـه القليل، أنه من المتـصـوفين، وأنّ لـديه شـيـخـاً يقيم غـيـر بعـيـد فـي الريف المجـاور، ولـه زاوية مشـهورة هناك، وقـال لي إنّ الأمـر يعود إليّ إن رغـبت بأن أذهب معـه الليلة هنـاك لحضور مـجلس الذكر، والتعرف على شيخ الطريقة نورالدين، أو العودة إلى الفندق..!

ومن دون أيّ تردد، أجبـته بالموافـقـة، بل كنت مسـتـعداً

لأرجوه حينها لكي نذهب هناك، فابتسم، وقال بهدوء المطمئن:

قد عرفت هذا... سبحان الله كلّ شيء في أوانه..!

❖❖

أحسست بهيبة المكان، وتلك الأجواء التي تعبق فيه، وأنا أتخطى بوابة الزاوية برفقة مضيفي، فيما استقبلتني أصوات التهليل والذكر ورائحة البخور، وشعرت لوهلة بأنني قد عدت لأجواء مشابهة في طفولتي قبل نحو أربعة عقود حينما كان يقام المولد في قريتنا، وتوزع النساء علينا حبات «الحامض حلو، والمخشرم والفيصلية والكعكبان» مع قلية القمح، ونحن نجلس خلف الرجال أو غير بعيد عن الدكّات الحجرية لمداخل البيوت الطينية، حيث تتسرب إلينا أصوات المهللين، فيما الشيخ يقرأ من كتاب عتيق اسمه «مولد العروس» بينما النساء تزغرد بين الحين والآخر.

وعجبت لماذا تراجعت تلك الأجواء الروحانية التي كانت تجمع أهل القرية معاً، بينما تكتظ المساجد اليوم بالشباب الذين ينشغل كثير منهم بتحويل الدين إلى أحزاب سياسية جافة، لا روحانية فيها، تهتم بالحكم والجهاد، وتقسيم العالم إلى دار إيمان ودار كفر..!

ورأيت الشيخ نور الدين يتوسط الجموع، وقد بدا لي

بهي الطلعة بعمامة خضراء، ووقار جليل، فيما ذهب مضيفي إليه مباشرة فسلم عليه، وقبّل يده، وأنا خلفه، فقدمني إليه، وسلّمت عليه، ورد عليّ السلام بحرارة مرحّبا، وكأنه يعرفني منذ أمد بعيد، ودعا الله لي بالخير، ثم أجلسني مضيفي بين جماعة من المريدين والضيوف العابرين أمثالي، وكان بعضهم كما فهمت من الأجانب غير المسلمين، الذين يعيشون في حلب أو جاؤوا في زيارة لها من الراغبين بالتعرف على عالم التصوف، وطلب مني هامساً أن أشعر كما لو أنني في بيتي، فالزاوية هنا تجمع أحباب الله ورسوله بقلوب صافية، وهم يقبّلون يد الشيخ احتراماً، وقال لي إنهم سيبدأون بعد قليل إنشاد صلاة «جوهرة الأسرار».

رحت أتأمل هذا العالم الذي يبدو لي قصياً عنّي رغم انتمائي إليه كمسلم بشكل أو بآخر، وعيشي منذ الطفولة بين أركانه، لكنّ معلوماتي فيه لا تزيد على دروس التربية الدينية، وحصص القرآن في المدرسة، التي كانت ترافقها غالباً العصا الغليظة لمن لا يحفظ، وخطب شيخ المسجد المكررة، وصرخات خالتي المتدينة التي كانت تزورنا كثيراً بأنّ هذا حرام وهذا حلال، أو حكاياتها لي ولإخوتي قبل النوم عن الجنّة ذات الأنهار التي تفيض بالعسل واللبن، أو جهنم التي تشتعل فيها النيران التي تذيب الحجارة وعظام البشر..!

كانت أمي مختلفة تماماً عنها، فلم تنهرنا ذات يوم مهددة بسيف الله، بل كانت تعلمنا عن بعد، وتربينا بسلاسة ولطف، رغم أنها كانت أمّية لم تتح لها الظروف أن تدرس حتّى ولو ليوم واحد في الكتاتيب، فلم تكن هناك في الأصل مدرسة للإناث في قريتنا حتى منتصف الخمسينيات، وكانت لديها بعض الجمل الأثيرة التي تكررها لنا بين الحين والآخر كحكم إيمانية:

«العقيدة بالقلب مش باللحية»، و«الدين المعاملة مش بكثرة الركوع والسجود» و«الأعمال بالنيات»..!

وتذكرت أنني سرعان ما تخلصت من هذا الحمل، ومواعظه المرغّبة أو المهدّدة خلال الأشهر الأولى لي في الجامعة، فهو حمل خفيف لم يكن يثقلني؛ إذ كنت قد قضيت معظم شبابي الأول دون التزام بأداء العبادات، باستثناء صلاة الجمعة وصيام رمضان فقد كانا طقسين اجتماعيين بامتياز لا يمكن التهرب منها، ويرتبطان بالعيب أكثر من الخوف من العقاب المنتظر..!

بدأ شيخ الطريقة يقرأ بصوت شجي رافعاً صوته تدريجياً والمريدون يرددون خلفه، فيما كانت الكلمات والجمل ذات الإيقاع اللطيف تخترق سمعي، وتدور في أعماقي ساحبة إياي إلى أجواء أثيرية نورانية لم أعهدها من قبل:

«اللهم صل وبارك على نورك الأسبق، وسراطك المحقق، الذي أبرزته رحمة شاملة لوجودك، وأكرمته بشهودك، واصطفيته لنبوتك ورسالتك، وأرسلته بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنك، وسراجاً منيراً...!

نقطة مركز الباء الدائرة الأولية، وسرّ أسرار الألف القبطانية الذي فتقت به رتق الوجود، وخصصته بأشرف المقامات، وبمواهب الامتنان، والمقام المحمود، وأقسمت بحياته في كتابك المشهود، لأهل الكشف والشهود، فهو سرّك القديم الساري، وماء جوهر الجوهرية الجاري الذي أحييت به الموجودات من معدن وحيوان ونبات، قلب القلوب، وروح الأرواح، وأعلام الكلمات الطيبات القلم الأعلى، والعرش المحيط، روح جسد الكونين وبرزخ البحرين، وفخر الكونين.....»

شعرت كما لو أن الكلمات والجمل ذات الحلاوة والطلاوة، تحوم في الأرجاء، وكأنها قد غمست بنهر من الضوء، غاسلة عن القلوب كل ما ران عليها من التعب والقهر والشكّ واليأس.

بعدها جاء طقس الأذكار مع قرع الدفوف، وقام عدد من المريدين بالتمايل بحركات منتظمة مع ترديدهم بعض العبارات، ثم رأيت من أحضر منهم بعض قطع «الشيش» التي تشبه السيوف الدقيقة، وذهلت وأنا أشهد رجالاً منهم

يبدؤون بإدخال تلك القضبان المعدنية الحادة في جنوبهم، أو من الخدّ إلى الخدّ دون أن تسيل قطرة دم واحدة، فيما الشيخ ينظر إليهم بكل هدوء، ويكتفي بتحريك حبّات مسبحته والتمتمة بأذكاره وتسابيحه الخاصة، وشعرت حينئذ بالدوار وزيغ البصر، ورأيت مضيفي يدنو مني مشجعاً وشارحاً لي أنّ ما جرى حقيقي، وهو كرامة من الله لأوليائه، يساهم في إقناع المتشكك بالإيمان، وإدخال بعض الناس إلى الإسلام، وسمعت بعض الأجانب الحاضرين يطلقون صيحات التعجب، وقال لي الرجل مجدداً:

ما رأيته قطرة من بحر كرامات سيدي الشيخ نورالدين الذي أخذ الطريقة كابراً عن كابر، وأحياناً يتدخل في حالة الإنكار الشديد لبعض الحضور، فيظهر شيئاً من كراماته، ورأيته مرة قد أدخل سيفه في بطن أحد المريدين وأخرجه من ظهره ثم مسح مكان الطعنة، وقام المريد وكأنه لم يحصل له أيّ شيء...!

ووجدتني أردّ وشيء من الرهبة يسيطر عليّ بأنّي قد صدقت كلّ ما رأيت وأذهلني، وإن كنت لا أفهم كيف جرى ذلك فهو ضدّ كلّ ما درست من العلوم والقوانين الفيزيائية، ورجوت مضيفي أن ألتقي الشيخ منفرداً إن كان عنده متسع من الوقت بعد انفضاض الحضور، فلدي أسئلة كثيرة تأكل

ما تبقى لي من وعي بعد كلّ ما رأيت في حياتي وقرأت وسمعت..!

❖❖

لم أدر من أين أبدأ وأنا في حضرة الشيخ نورالدين، فأنا مثل إناء يطفح بالأسئلة والحيرة فتنساب جلية على ظاهره وتفضحه، ووجدت الرجل يهوّن الأمر عليّ بابتسامة تفيض بالحبّ الذي لا يحدّ، ويقول لي وأنا صامت أمامه، كما لو كان يسمع أسئلتي التي تتلجلج في أعماقي وهو يجيب:

اعلم أنّ التصوف من صفاء النفوس، وتنقية القلوب، وتلطيف الأبدان، وهو روح الدين، وباطن الشريعة، وأن الله يختص برحمته وعلمه وكراماته من يشاء، ولا تظن أن ضرب الشيش مقصد للدعوة، ولا طريقة للترهيب، بل كرامة يستخدمها المريدون في وقتها، وأنّ خرق العوائد والقوانين ليست بقدرات البشر بل بإذن خاص من العالم الذي لا يراه الناس، فنحن لسنا وحدنا في هذا الكون، فثمة مخلوقات نورانية وأرواح عالية، وهناك أرواح أخرى ظلمانية سفلية نعوذ بالله منها..!

واعلم أنّ الأذكار هي غذاء للروح والبدن، فللكلمة قوتها النورانية، والأحرف أرواح تسري في الكون، يعرف فعلها المقربون والصالحون، وأن الإنسان مخلوق عظيم الشأن في الكون، وخليفة الله على أرضه، يستطيع أن يصفو ويشفّ

بالإيمان، ويتصل بالطاقة النورانية المحمدية التي خلقنا منها جميعاً، ولهذا نكثر من الصلاة عليه، فما عرفنا الله إلا من خلاله، فهو معلمنا البشير السراج المنير، من جهل قدره فقد ضل وتاه..!

شعرت بكلمات الرجل صادقة وخارجة من أعماقه مثل نور يبدّد العتمة، ولكن كانت لا تزال تشرئب من رأسي الكثير من الأسئلة التي تنتظر الإجابات، فقد تنبّهت أن اختراق الشيش للجسد لا يقتصر على متصوفي المسلمين فحسب؛ إذ حدثتني كاثلين ذات لقاء عن رؤيتها للعشرات من الهنود الذين يمشون على الجمر، والتايلنديين الذين يدخلون أيضاً السيوف في أجسادهم، وشاهدت أنا بنفسي برامج تلفزيونية للساحر الأميركي ديفيد كوبرفيلد وهو يطير في الهواء، أو يسير على الماء، أو يتقطع نصفين بالمنشار الكهربائي..!

فما الفرق إذن بين الإيمان والكفر؟

وما بين الشعوذة والكرامات؟

وبين ما هو ظلماني أو نوراني إذا كان يخترق العوائد ويعطل القوانين الأرضية والعلوم التي نعرف...؟

ما هي الرواية الصحيحة التي يمكن أن أعتمدها بالضبط؟

أهي ما وصلني من الحسيني ورفيقه سيرجي عن الكائنات الأخرى المتطورة؟

أم بحوث كاثلين ورحلاتها الروحية؟

أم هي كرامات الأب حنّا وأذكار الشيخ نورالدين؟

ربما تكون كل الروايات صحيحة بشكل أو بآخر تحتاج أحداً ما كي يجمعها معاً في نسيج واحد أستطيع استيعابه، وربما تكون عقليتي المنتظمة الخطية التفكير هي التي تسعى لترتيب ما هو غير منظم أساساً، وغير قابل للعقل أن يفهمه، فكلّ الاحتمالات تبدو صحيحة بشكل أو بآخر، وكلها تبدو لي خاطئة في الوقت نفسه..!

حتى أمد قريب كان الإيمان بالله والعوالم اللامنظورة شيئاً من الخرافات بالنسبة لي، ولكن ها أنذا أتعرض يوماً بعد يوم لاختبارات قاسية، ولإشارات ساطعة بأنّ هناك قوة كبرى مهيمنة تدير هذا العالم بدقة، وأن عليّ فقط أن أفتح قلبي وعقلي لكي تضيء أعماقي بشكل نهائي بعيداً عن أي تشكيك، ولكن لم يأتني ما هو قوي ومتوهج يبدد كل الشكوك كي أسكن وأرتاح إلى الأبد..!

ووجدت الشيخ نور الدين يوقظني من صمتي الصاخب قائلاً:

لقد أطلت البحث في الخارج، وربما لن تعثر على ما

يريحك بل ما يزيدك إرباكاً، ولكن خض غمار نفسك، وفتش في داخلك تجد ما تبحث عنه..!

وعلى كل حال ما رأيته عندنا قطرة من بركات القطب الأكبر والنور المبهر الشيخ «المحبّ» فإن التقيت به أبلغه سلامي ومحبتي، واعلم أنّ عنده جواباً لكلّ ما يحيرك...!

ونسيت وأنا أغادر حلب، عائداً نحو الجنوب، صباح اليوم التالي أن أسأل إن كان الشيخ «المحبّ»، يعيش في عمان، أو أنني ربما فهمت إشارات الشيخ نور الدين خطأً، وأنّ عليّ أن أبدأ بحثي عنه إن كنت حقاً راغباً بالمزيد، ولكنّي رحت أُمنّي نفسي بأن ألتقي به في أقرب وقت، وقلت لنفسي والحافلة تنهب الطريق بسرعة، كأنما تتبع شوقي الجامح:

لا بدّ أنّه المعلم الذي أنتظر..!

البتراء - جنوب الأردن

(إبريل ٢٠٠١)

لم يمض على عودتي من حلب أكثر من شهر، ورغم هذا لم أشأ أن أضيع مثل هذه الفرصة، فقد دعتني كاثلين ورفاقنا في «أسرة الضياء» لخلوة تأملية لليلتين تشمل منطقة البتراء، ووادي رم في جنوب الأردن، وقالت لنا إنّ هناك خصوصية لهذه المنطقة من ناحية تركيز الطاقة فيها، وبعدها عن أيّ تشويش تكنولوجي من صنع الإنسان، وأبلغتنا أنّ اليوم الأول سيكون مخصّصاً خلال فترة المساء للتجول في البتراء، والتمتع بتفاصيل معالمها المنحوتة في الصخر، واكتشاف أسرارها بهدوء، فيما ستكون هناك ساعة تأمل جماعية في مخيم «البيضاء»، وهي منطقة غير بعيدة عن المدينة الأثرية، ويدعونها أيضاً «البتراء الصغيرة»، حيث ستتحدث إلينا ضيفة قادمة من بريطانيا عن بعض خبراتها الروحية، واليوم التالي سيكون مخصّصاً لوادي رم، والتأمل والمبيت وسط الصحراء في تجربة لا تنسى.

تذكرت وأنا ألج عتبات المدينة من شقّها الضيق المذهل

الذي يدعى «السيق» أنّه قد مرّت أكثر من عشر سنوات على آخر زيارة لي إلى البتراء ورم مع مجموعة من الأصدقاء، وكانت تجربة عجيبة وصاخبة، شربنا فيها ورقصنا فوق الرمال حتى الصباح، بعد أن أوصلنا أهالي القرية من البدو بسيارتهم «الجيب» إلى مخيم استأجرناه خصيصاً في منطقة قصية وسط الرمال..!

كنت قد قرأت بعض الكتب عن البتراء وحضارة الأنباط، ولكنها تصيب المرء بالعطش بدل الارتواء، فمن الواضح أنّها اجتهادات لا تستند إلى أدلة راسخة، وثمّة قطيعة معرفية لا يعرف سببها بعد عن تلك الحضارة العظيمة التي عاشت هنا، كما لو أنّ أهلها قد اختطفوا جميعاً بين ليلة وضحاها، أو أبيدوا بمواد قادرة عل قتل السكان وإبقاء المدينة قائمة، حتى دمّرت بعض معالمها الزلازل فيما بعد، إضافة إلى الحروب، وتقلبات الشعوب التي استوطنتها لاحقاً، وأحسست بأنّ حكاية هذه المدينة ومن بناها وحضارة سكانها، تشبه الأهرامات ما تزال لغزاً لم يكتشف بعد تماماً، منذ جاءها الرحالة السويسري جون لويس بيركهارت عام ١٨١٢م حاملاً «شاة» فوق رقبته لتقديمها أضحية في مقام هارون، مقنعاً البدو الذين كانوا يسيطرون علي المنطقة بأنه مسلم، وقطع مسافات طويلة ليوفي بنذره، وهم يحاولون إقناعه بالعودة، قائلين له بأنّ الجنّ هم من بنوا هذه المدينة!

لكنّ هذا الشاب المتحمس استطاع أن يدخل إليها، ويدوّن برسوماته وتخطيطاته أغلب ما رآه من معالم، وعاد إلى لندن بعد وقت قصير من ذلك ليعقد مؤتمراً صحفياً يعلن للعالم فيه عن اكتشاف البتراء، بعد قرون طويلة من بقائها طي النسيان.

وعجبت لم يعتقد الأهالي هناك أنّ الجنّ من الممكن أن يشيّدوا العمران، أو يحفروا الصخور، وينحتوا التماثيل، حتى إنّ هناك ثلاث صخور ضخمة قبل الوصول إلى مدخل السيق لم يكتمل نحتها كما يبدو يطلقون عليها إلى اليوم «صخور الجن»، وعجبت أكثر لم كلّ هذا الحضور القوي لهذا العالم المخفي في تفاصيل حياتنا، وكأنه قادم من حكايات «ألف ليلة وليلة» التي تزدحم أحداثها بأفعال هذه الكائنات، وتشاطر الناس في طعامهم وشرابهم وحبيباتهم!

وقلت في نفسي إذا كان ما رواه لي الحسيني عن الأهرامات صحيحاً، ومساعدة عوالم متطورة في بنائها، ثم وجدت من يقول لي اليوم أيضاً بأن الجنّ ساهم في نحت البتراء، وأخبرت أحداً بهذا الأمر، فإنه لا بدّ أن يتم تحويلي إلى أقرب مستشفى للأمراض العقلية، فأنا بالكاد أستفيق مما رأيت في حلب من الأشياء التي لا يقبلها العقل أبداً، والتي من الصعب أن يستوعبها الناس، العوام منهم والخواص!

قبل الوصول لنهاية السيق توقفت لأتأمّل جماليات الخزنة، وهي تشرق بكلّ بهائها الباذخ شيئاً فشيئاً لتسحر الأبصار، وهو مشهد لا تملّه العيون، ورحت أتفكر في هذا النحت الباسق الجليل، ومن أتقنه بكلّ هذه الروعة والدقة رغم ضخامته المحيرة!

ولم يقطع تفكّري غير صوت كاثلين، وهي تقدم لي ضيفتنا القادمة من بريطانيا «آمنة»، وكنت أحسبها إنجليزية شقراء، وعجوزاً أيضاً، غير أنني فوجئت بها أردنية على مشارف الأربعين، تواصل دراساتها العليا هناك في جامعة كمبريدج في التصوف كما قالت لي، ونحن نواصل سيرنا معاً على الرمال متجاوزين الخزنة باتجاه قلب المدينة للوصول إلى «قصر البنت».

وقالت لي آمنة إنها تصاب بالدهشة كلّ مرة تأتي بها إلى هذه المدينة، وخصوصاً مشاهدة الخزنة، وهي تتكشف بنورها للقادمين من عتمة السيق، إضافة إلى أنها تحسّ بأنها مدينة مليئة بالأسرار التي لم تكتشف بعد، وقالت لي إنّ كاثلين حدثتني قليلاً عن اهتماماتك في الروحانيات، وأنك عدت من تجربة غنية في حلب مؤخراً مع المتصوفة هناك، وقلت لها مقاطعاً كمن يشعر بتواضع خبراته:

أنا طالب مبتدئ في هذه الأمور، وربما يأتي وقت أحدثك فيه عمّا أعرف، ولكنّي متشوق حقاً أن أسمعك

لأنني التقي لأول مرة بمن يدرس التصوّف، ويعرفه عن قرب، ويؤمن بما فيه، ولا سيما أنك من بلد لا يوجد فيه الكثير من الإرث الصوفي!

قالت بعد أن أطلقت تنهيدة طويلة، ونحن ما نزال نواصل المسير، إنّ الوقت قد لا يتسع لكلام كثير، ولكنها ستحدثني شذرات من هذه التجربة، وتعتمد في الباقي على أسئلة محددة منّي إن رغبت، وإن استطاعت هي أن تجيب عنها.

❖❖

«.....، ربما لا تصدق أنّ حكايات أمي عن جدّي المتصوف هي الدافع لي لدراستي، وبحثي المتواصل في هذا الحقل العميق، فهناك الآلاف من الطلبة الذي يدرسون الشريعة الإسلامية بظاهرها من الفقه، والعقيدة، والحديث، وغيره، ولكن ندرة هم أولئك الذين يغوصون في الباطن لمعرفة ما فيها من كنوز، وأنا أحببت أن أكون منهم، وقد لاحظت كيف تمّ قمع التصوف ورموزه من قبل الفقهاء والسلاطين عبر القرون الطويلة، لا بل إنّ بعض رموزهم قد تمّ صلبهم مثل الحلاج، إضافة إلى منع منجزاتهم الفكرية والأدبية وكتبهم حتى يومنا هذا في بعض البلدان!

أنا نصفي شيشاني من جهة أمي، فقد كان جدّي من أولئك المهاجرين الأوائل إلى الأردن حوالي العام ١٩٠٣م،

وكانت أمي تروي لي منذ صغري تفاصيل الهجرة المرهقة، ومعاناة جدّي وجماعته منذ خروجهم من بلادهم في القوقاز الثلجية والجبلية البعيدة، وحتى وصولهم منطقة نهر الزرقاء الواقعة على حافة الصحراء، وكيف قاموا بتأسيس قرية هناك غرب سكّة الحديد بيتاً بيتاً، والتي سرعان ما امتلأت بأبناء القبائل المجاورة، والمهاجرين الفلسطينيين فيما بعد، حتى أصبحت «الزرقاء» المدينة الثانية اليوم.

كان معظم المهاجرين الشيشان من أتباع الطريقة النقشبندية، وكان جدّي واحداً من شيوخهم، ومعلّماً للكتاتيب، وأنّهم أينما ذهبوا كانوا يؤسسون مدرسة ومسجداً، حتى إنهم جاءوا معهم بمخطوطاتهم وكتبهم بالعربية، وحين وصلوا تخوم الشام خلع بعضهم أحذيتهم لاعتقادهم أنهم في أرض مقدسة، مستذكرين الآية القرآنية التي تخاطب سيدنا موسى «فاخلع نعليك إنك بالوادي المقدّس طوى..»!

غير أنني لم أجد الكثير في بحثي عن جدّي الذي رحل في نهاية الأربعينيات، وتكاد تكون «الطريقة النقشبندية» قد تلاشت اليوم تماماً هنا، وأنا طبعاً لا أهتم في دراستي للجانب الطقوسي للمتصوفة أو مواقفهم السياسية، بل أتناول نظرتهم للوجود، أي البعد الفلسفي للتصوف

الإسلامي تحديداً، وهذا الأمر يقتضي الكثير من القراءة والبحث، وأنا عاشقة للشيخ الأكبر ابن عربي وكل إنتاجه الضخم وأفكاره، أما جدّي فهو يحضر كعامل محرّض في ذاكرتي فقط !

وخشيت أن تنساب آمنة مع تفاصيل لا تهمّني كثيراً، وينقضي الوقت دون أن أصل لشيء يرويني، أنا المتعطش لأشياء كثيرة، فوجدتني أقاطعها بالقول:

هل تعرفين شيخاً يعيش في الأردن اسمه «المُحب»؟

قالت بعد صمت قصير:

لم أسمع باسم هذا الشيخ من قبل لا هنا في الأردن من خلال بحثي ولا في الخارج، وعلى كل حالّ فالتصوف في الأردن محدود، وشيوخه معروفون، ولكن من أين أتيت باسمه؟

ورحت أحكي لها عن زيارتي لحلب، وبعض ما جرى هناك، ومقابلتي للشيخ نور الدين، فوجدتها تقول مبتسمة:

المتصوفة يتكلمون غالباً بالرموز والإشارات، ولهذا ربما لا يقصد الشيخ وجود من هو بهذا الاسم لحماً ودماً...، ربما يريد أن يدلك على شيء ما، فكر بالأمر بطريقة أخرى إذاً..!

كان بقية رفاقنا في «أسرة الضياء» قد التحقوا بنا،

وصار من المتعذر أن نستمر بخوض حديث ثنائي، فقالت لي مودعة:

ربما نستكمل حوارنا غداً في رم، والآن أريد أن أركز جهدي على محاضرة الليلة، وإن شاء الله تجد فيها شيئاً جديداً.

❖❖

جمعتنا كاثلين معاً أمام مخيم «البيضاء» في أول الليل، وأعطتنا بعض التمارين الخاصة بالتنفس، لاستنشاق أكبر كمية من الهواء النقي، وللمساعدة على الاسترخاء في تلك المنطقة ذات الطبيعة الخاصة، وبعدها قدمت لنا «آمنة» لتحدثنا في أي موضوع تختاره، فراحت تفيض علينا بأشياء أسمع بها لأول مرة، وأحسست للحظات وهي تتكلم، بأنّ الحسيني أمامي ينطق الكلمات نفسها، والأفكار التي عرفها من سيرجي أو اكتشفها وحده، ولوهلة شعرت بذلك التماهي بينهم جميعاً وتقلبت أمامي وجوههم، فرأيت رجالاً ونساءً من شتّى الأجناس والعصور يظهرون أمامي ويختفون:

قد تتوقعون أن أحدثكم عن التصوف الذي أتخصص به، ولكنّي أحببت أن أشارككم بتجربة روحية مختلفة جرت لي في بريطانيا خلال الصيف الماضي، ولا بد أن الكثير منكم سمع بمثلها أو شاهدها، وهي فرصة لكي نتناقش بها

معاً، وأستفيد فيها من خبراتكم، فقد شجعتني صديقة لي على القيام برحلة معها لزيارة «Stonehenge» في الريف الانجليزي، حيث الآثار الغريبة والتي تضم مجموعة من الصخور الضخمة التي تقف مثل حراس أزليين على شكل دائرة، وقالت لي صديقتي إنها ربما تكون جزءاً من منظومة شبكة الطاقة التي كانت تربط نقاطاً محدّدة على الأرض معاً بما فيها الأهرامات، وتتواصل من خلالها مع الكواكب الأخرى كما فهمت، وهذا كلام أسمعه لأوّل مرة، ربما يمكن لأحدكم أن يزيدني فيه علماً، ولكن تلك الآثار بدت لي عادية أمام المعجزات التي تتكون أمام أنظارنا دون أن نستطيع لها تفسيراً، والتي تدعى «crops circles» أي دوائر المحاصيل بتكويناتها الهندسية البارعة، حيث يستيقظ السكان في الصباح لرؤية أشكال هندسية مذهلة تغطي مساحات واسعة من سهول القمح أو الشوفان الشاسعة!

لقد بحثت في هذا الأمر وعلمت أنّ هناك مئات من اللوحات المتقنة والمحيّرة التي ربما رسمتها كيانات متطورة خلال العشرين عاماً الماضية وسط الحقول في شتى أنحاء العالم، ومنها بريطانيا وهولندا وروسيا وغيرها، ولكن المنطقة القريبة من «ستون هينج» وهضبة سيلبوري وجنوب غرب إنجلترا تشتهر بها أكثر من غيرها لخصوصيتها الروحية ووجود آثارها التي تعود إلى حضارات قديمة جداً كما قيل لي!

معظم تلك اللوحات تحتل مساحات هائلة، ولا يمكن رؤية شكلها بالكامل وتصويرها إلا من خلال الطائرات، وفي العادة يستيقظ الناس ليروا لوحة مدهشة وذات مقاييس دقيقة، ولا يمكن لأيّ طاقم بشري أن ينجزها بتلك الدقة والمساحة، وفي ظلّ ذلك الزمن الليلي القصير، فثمة طاقة هائلة تعمل على ثني عيدان القمح دون أن تكسرها، مما يشكل لوحة غريبة فيها رموز لم تكتشف بعد..!

القصة هي أننا استيقظنا في صباح اليوم التالي من زيارتنا على لوحة ضخمة في حقل القمح المجاور لنا، فذهبنا هناك وقمنا بالتأمل داخل تلك الدوائر مستغلين طاقتها العليا، وما أزال في حيرة من أمري عن هذه الرموز التي ترسل إلينا من جهات غامضة أكثر علماً ولديها إمكانيات متطورة، وما الذي تريد أن تقوله فيها.....».

❖❖

التقيت آمنة مساء اليوم التالي في مخيمنا الذي أقمناه وسط صحراء رم، التي تدعى أيضاً «وادي القمر» لجمال تضاريسها البكر، وقلت لها إن موضوعك الذي حدثتنا عنه البارحة أثار الكثير من النقاش، وتبادل الآراء عند الحاضرين، لكنّي بصراحة متخم جداً من كثرة ما سمعت فيما مضى من الأيام عن هذه الغرائب التي في الكون، والتي ما تزال تنتظر من يفك ألغازها، غير أنّي حقاً

متعطش للمزيد من التعرف إلى التصوف وأفكاره، وربما لا تصدقين أنني بدأت بقراءة القرآن من جديد بعد زيارة حلب، لعلّي أحاول أن افهم شيئاً، وأربط الحكايات كلها معاً، في نسق واحد فأرتاح وأريح إلى الأبد.

قالت لي:

التصوف صهرني في بوتقته، وصنع مني إنسانة جديدة، وتأكد بأنه يريح العقل والجسد والروح بفلسفته، أما القرآن ففيه أسرار لا تنتهي، ويفتح نفسه لك إن كنت راغباً حقاً بالمعرفة والإيمان.

قلت لها متسائلاً:

هل تعتقدين من خلال بحوثك وتعمقك أنّ هناك تفسيراً لهذه الظواهر الغريبة، وهل ورد عنها شيء في القرآن، ويعترف بها الإسلام؟

وقالت لي منتبهة إلى سؤالي:

ما الذي تقصده بالضبط بالظواهر الغريبة؟

قلت متذكراً كلّ ما أحمله على ظهري من حكايات وحوادث وظواهر، منذ ليلة العفاريت مرورا بالحسيني وسيرجي وزيارة حلب، وصولاً إلى حكايتها عن لوحات المحاصيل نافثاً كلّ ما في أعماقي بما يشبه الغضب:

يعني الكائنات الأخرى التي لا تُرى، الانتقال إلى

الكواكب، الأهرامات، ضرب الشيش، الجنّ الأحمر أو الأصفر.... أي شي.... بصراحة أنا تعبت !

ووجدتها حينئذ تضحك من كل أعماقها بصوت عال، وقالت لي بعد أن هدأت قليلاً:

على مهلك يا رجل... تريد أن تعرف كلّ شيء دفعة واحدة!

ثم إن بعض ما أقوله لك لا بدّ أنك تعرفه جيداً من قبل، فأنت في النهاية من عائلة مسلمة وتنتمي إلى ثقافتها حتى لو كنت ملحداً، وبعض هذه الأمور من البديهيات، مثلاً الجنّ عالم موجود بنصوص صريحة في القرآن، والعفاريت والشياطين وكلّ هذه العوالم غير المنظورة، ولكن الإنسان أقوى من كلّ تلك الكائنات الأخرى، ولكنّه لا يستخدم الطاقات التي خلقها الله فيه، فهو مكرم وأسجد الملائكة له، لأنّ فيه النفخة الإلهية إضافة إلى العناصر المادية، وهو خليفة الله على الأرض، والمستخلف عادة ما يعطي خليفته شيئاً من صلاحياته، أي من الممكن أن تتجلى أسماء الله وصفاته على بعض البشر كلما ارتقوا وصاروا نورانيين، أو ربما يهبطون إلى مرتبة أقل من الدواب فيصيرون في أسفل سافلين.

قلت مستغرباً:

وهل هناك أمم أخرى متطورة في الماضي، كانت تمتلك علوماً وتكنولوجيا أكثر مما وصل إلينا اليوم؟

أي هل من الممكن أن يكون بعض أجدادنا القدامى أكثر تقدماً منا اليوم؟

قالت:

لا يوجد ما ينافي هذه النظرية، بل هناك آيات تدعمها، خذ مثلاً هذه الآية «أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها...»!

الذي أراه أنّه كانت هناك علوم معينة سرية مع بعض الخواص، وليس مع عامة الناس، فهناك إشارات في القرآن إلى إنسان استطاع نقل المادة من مكان إلى آخر، فالذي عنده علم من الكتاب كان جالساً أمام سيدنا سليمان، واستطاع نقل عرش بلقيس قبل أن يرتد إليه طرفه، أي أكثر من ضعف سرعة الضوء، بينما لم يستطع العفريت الذي من الجن أن يفعل ذلك بتلك السرعة، وهناك إشارات أخرى كثيرة ربما يفتح الله عليك وأنت تقرأ القرآن وتتدبره بأن تكتشفها.

قلت:

والخوارق؟ كيف تعطى للمؤمنين وللكافرين على السواء؟

قالت:

المعـرفـة قـد تكون نورانيـة أو ظلمـانيـة، وهناك حـرية الاختيـار عند الإنسـان ليحصل عليها من الصالحين فتكون كرامات، أو من الشياطين فتكون سحراً، وشتـان بين طريق النور وطريق الظلمة!

صـمتٌّ طويـلا مـذهـولاً بكلّ هذه الإجـابات التي كـانت تحت سمعي وبصري أكثر من عشرين سنة ولم أنتبـه لهـا، وسمعت آمنة تخرجني مما أنا فيه بالقول:

المشكلة أنّ الكثير من المسلمين يعرفون كلّ هذه الأشياء ويقـرؤونهـا بكرة وعـشـيـاً، ولكن كـثـيـراً منهم ينكرونهـا، أو يمرون عليها دون تمحيص، وكأن قلوبهم مقفلة!

ثم أردفت:

ها هل اكتفيت أم هناك ما ترغب بمعرفته؟

وقلت لها مازحاً:

تصـــوري لو قلت لهم مــثـــلاً إن الجنّ ســاهـم في بناء البتراء فكيف سيكون حالهم!

قالت منتبهة بشكل جدي بدل أن تضحك:

كـأنك أنت تسـأل هذا منتظراً الإجـابة، وربما تسـخـر أيضاً..!

الجن يا عـزيزي لغـة الشـيء المخـفي، لأننـا لا نراه، ولا نعرف عنه الكثير، وإن كنت لا تصدق فهناك آيات تدل على أنّ الشياطين كانوا مسخّرين لسيدنا سليمان، وكانوا ينحتون له التـمـاثيل والمحـاريب، ويغـوصـون في البـحـار، ويجـوّبون الجبال!

لهـذا لا أرى مـانعـاً من كـونهم قـد اسـتـخـدمـوا لنحت البـتـراء أو بعـضـهـا، مع أني لا أعـتـقـد أن كلّ شـيء يجب نسبته لهـذا العـالم الخـفي، فـالإنسـان كمـا قلت لك مـخلوق عظيم وقادر على أن ينجز المعجزات!

لم أعـرف بما أرد حـينـهـا، فـقـد بهت بكل مـا سـمـعت، ووجدتني أقول لآمنة مطمئناً نفسي:

كل مـا عـرفت قـد يقـود المرء للجنون لأننا لم نعـتـد على سـمـاعـه، ولكنّه منطقي جـداً إذا تم جـمـعـه معـاً في لوحـة فسيفساء واحدة، لتبدو الصورة كاملة، وأعتقد أنني أضع الآن حجارتها الأخيرة معاً كي أرتاح، ولكن أخبريني يا آمنة هل أنت مستعدة لقول ما قلته لي الآن للناس مباشرة..!

وردت ضاحكة من جديد:

أعوذ بالله هل أنا مجنونة؟؟

اسمع ما أقوله لك:

أغلب الناس يا عزيزي لا يودّون أن يعرفوا الحقيقة، ولا

أن يخرجوا من قواقعهم التي اطمأنوا إليها، ولا أن يغادروا القطيع حتى لو كان ذاهباً بهم إلى حتفهم، ولهذا كذبوا رسلهم، واتهموهم بالسحر والشعوذة، وقتلوا منهم الكثير، حتى لو جاءوا لهم بكل الخوارق والمعجزات، أو هبطت معهم الملائكة ورأوها بأعينهم!

وأردفت كمن ينهي اللقاء:

الإيمان يأتي معه بالقبول والتسليم، وفتح القلب على آفاق الحب الإلهي، والعقل حجاب إن اعتمدنا عليه فقط، وأريد أن أقرأ لك أبياتاً من شعر شيخي محي الدين ابن عربي ربما تفسر لك خلاصة ما توصلت إليه، وما يمكن أن يفعله الإيمان الحقيقي بالإنسان:

لقد صار قلبي قابلاً كلَّ صورةٍ
فمرعى لغزلانٍ وديرٌ لرهبانِ
وبيتٌ لأوثانٍ وكعبةُ طائفٍ
وألواحُ توراةٍ ومصحفُ قرآنِ
أدين بدينِ الحبِ أنى توجَّهَت ركائبُهُ
فالحبُ ديني وإيماني

❖❖

كان القمر بدراً ونحن نتحلق معاً مفترشين الأرض

الرملية الناعمة، وملتحفين السماء الصافية المرصعة بالنجوم والمجرّات، وقد تفرقنا حول الخيم نتأمل ببديع الأكوان، كان الليل ساكناً لا نكاد نسمع أيّ صوت، فيما نادتنا كاثلين لنجتمع معاً مشكلين حلقة واحدة، وممسكين بعضنا بأيدي بعض، وقالت لنا إن تمرين الليلة يهدف إلى تحرير كلّ ما في داخلنا من تراكمات لضغوطات نفسية، أو ذكريات سيئة، أو ملفات مزعجة، أو خواطر سلبية، وإطلاقها عبر تخيل كتلة من اللهب في منتصف الدائرة ورميها فيها لتحترق وتزول إلى الأبد، وقالت إنها فرصة لكل واحد منا لكي ينقي أعماقه مما علق بها عبر السنوات الماضية من ظلم المحيطين أو عدم التسامح أو الجشع أو الحقد، وأنه يمكن لأي واحد منا أن يعبر بطريقته التي يشعر بها عن هذا «التحرير» مثل البكاء أو الضحك أو الصراخ، وقالت:

هي فرصة ثمينة في هذا المكان النائي ووسط غلالة الليل أن يخرج كل واحد ما يعتمل في أعماقه دون شعور بالخجل أو أن هناك من يراقبه، فنحن كلنا أسرة واحدة تريد أن تضيء ولو شمعة في هذا العالم..!

أغمضنا أعيننا، وبدأنا بالتنفس العميق ونحن واقفون، وبدأت أغيب شيئاً فشيئاً في عالمي متخيلاً ذكريات كثيرة، وشكوكاً مريرة غطتني بحجبها فترة طويلة، وبدأت برميها

لتحترق في كتلة اللهب، وشعرت بلذة عظيمة كلما رأيت ملفات أخرى بدت لي مثل الكوابيس السوداء، أو الأحمال الثقيلة التي ترهقني، وهي تتلاشى، وشعرت حينها برغبة جامحة في البكاء، فيما تناهت إليّ أصوات رفاقي، منهم من كان ينشج أو يصرخ، ورأيت دموعي تهطل بقوة، وأنا أبكي بصوت منخفض!

أحسست برغبتي أن أترك حلقة رفاقي وأذهب بعيداً عنهم لأصرخ وأبكي كما أشاء، وانسللت بهدوء ماشيا على غير هدى في صحراء لا تحدّ، وأنا أبكي بكاء شديداً وأنوح بصوت مرتفع، لم أعرف له سبباً، غير أني كنت راغباً بالمزيد، وشعرت كما لو أن كلّ ما في العالم في تلك اللحظة يبكي معي، ويغسل ما علق بالبشر منذ الأزل من كلّ سوء، وشعرت بأني ابتعدت كثيرا ولم أعد أسمع صوت رفاقي ولا أرى نيرانهم، وبينما أنا كذلك سمعت صوتاً قادماً من جهة الطور يناديني..!

شعرت بأني أعرف هذا الصوت من قبل، ونظرت جهته، فرأيت رجلاً بلباس أبيض ناصع، كما لو أنه شق الجبل وخرج منه، وكأن حول جسده هالة من الضوء، ولكني لم أتبين وجهه بعد، فقال لي:

اقترب ولا تخف!

وشعرت بطمأنينة عجيبة تهبط عليّ، فاقتربت أكثر

ورأيت وجها مبتسماً أعرفه من قبل، وتذكرت فإذا هو ذلك الرجل الذي أنقذني من هجوم الظلال البشعة قبل سنوات طويلة في جبل اللوبيدة، وقال لي مثلما قال لي حينها:

خير إن شاء الله... لا تقلق!

وأحسست بي أسقط على الأرض، ونوره يغشاني، وشعرت بأني أكلمه بالخاطر دون لسان، وهو يرد علي بدون كلام فأعي كل ما يقول مثل إشارات ملغزة:

- أنت الشيخ المحب إذاً؟
- ربما هو
- وأنا؟
- في مقام المحو الآن فاسأل ما تريد!
- هل الله موجود؟
- وهل في الكون سواه!
- أنت المعلم الذي أنتظر؟
- كلنا تلاميذ عند معلم واحد!
- وهل سنراه؟
- كلنا تجليات من صور فيضه
- وكيف أعرفه؟
- اعرف نفسك أولاً
- والرسول؟
- نور الوجود

- والعقل؟
- حجاب لمن يشاء
- والنور؟
- الحقيقة
- والظلمة؟
- عدم المعرفة
- والشيطان؟
- غلبة النفس
- والروح؟
- في عليين
- والإنسان؟
- جوهرة الخالق
- والحساب؟
- إنما هي أعمالكم ترد إليكم
- والنار؟
- تطلع على الأفئدة
- والجنة؟
- لمن نوره بين يديه
- والديانات؟
- تدلّ فقط على الطريق
- والأكوان الأخرى؟
- يخلق ما يشاء

- والجن؟
- أمم أمثالكم
- والملائكة؟
- عباد الرحمن
- وهل يمكن أن نراهم؟
- فتمثل لها بشراً سوياً
- والكرامات؟
- هبات تحفظ في صناديق مقفلة
- والعلوم السرية؟
- يؤت الحكمة من يشاء
- والدعوة إلى الله؟
- وما على الرسول إلا البلاغ
- وأين أجدك إن طلبتك؟
- أقرب إليك من حبل الوريد
- أنقذتني تلك الليلة؟
- كل شيء لسبب
- وهل سيصدق الناس ما سأقول لهم؟
- ليس عليك هداهم!
- بماذا تنصحني.؟
- أشرع قلبك للحب
- زدني
- كل ما تبحث عنه في داخلك!

ملحق (١)

نص وجد في حقيبة الحسيني لا يعرف من كتبه

(وادي رم - خريف ١٩٨٧)

يا من هناك في الأعالي:

أنظر بعين الحبّ إلينا، وقد تفرقنا بين الخيام في العشيّ والإبكار، نبحث عنك أو ننتظر ما تهطل علينا من البركات!

ولا تؤاخذنا بمن أصيب منا بقلة الحيلة، والمرض، والمسّ، وشعب التيه، والجنون!

لم نكن عاقلين إذ رأينا القمر معلقاً فوق واديه، يدنو ويتدلى حتى يطال الرؤوس، ثم ينأى ويذوب في سمته!

لم نكن عاطلين عن تفحص السيول، ومكامن الصخر، ومسارب النمل، وأوكار الوحوش، ونقوش عاد وثمود، وآثار ممالك العماليق التي لم يخلق مثلها في البلاد!

كانت السماء حينها تطبق على الجهات الخمس، فتسكت الأعين عن الإحاطة بهيبة الأمكنة، ثم تتسع الرؤية

فوق كثبان الرمال التي لا تعد ولا تجمع، فتضيق الألسن عن الإمساك بدهشة الصحراء، وهي تتسربل بحلل المهابة والغموض!

وكانت القلوب قد بلغت الحناجر من النطّ والشيطنة والتسلق في محاولات يائسة للجثو على هامات الصخر الناتىء أو المجوف، المنحوت أو البكر..، المجوّب أو المصمت، أو الذي أجرت فيه فصول الدهر تصاريفها.

وهو أيضاً:

المشظّى، المفتّت، المسحوق، المشقّق، المكسّر، المتناثر، الصلد، الأملس، الجلمود الذي حطّه الليل من عل، المركون في أحشاء الوديان منذ بدء الخلق أو يزيد..، المهيأ للسقوط او للطيران.!

❖❖

رأيت منّا من يتربص بالشقوق، ومن يحنو على الهضبات، ومن يقبض على ذرّات الغبار، ومن يصعد ليشدّ ذيول الغيوم، ومن يتعمشق الأغصان الحجرية، ومن يجمع الحصى وشقف الصخر، ومن هدّه التعب، وأعياه الشراب ومن يضيق ويتبرم ويتطير ويخاف..، ومن يضحك ويندهش فسبحان مقلب التقاسيم والسحنات والأمزجة، سيد العناصر كلها!

قـادنا أبناء «الـزلابيـة» وبدو الحـويطات بسـيـاراتهم «الجيب» نحو طرق ومسارب، سلكها أجدادهم ذات أحقاب فوق الجمال. جاسوا بنا خلال الممرات، التي تتسع وتضيق، بين تلال وجبال وأوتاد وعمد من الصخور الحمراء المتشربة للون الأفق، أو الداكنة المعـجـونة بالفلزات، أو التي تشـبـه قافلة من الفيلة البيضاء..!

هنـاك بـين الشنيـات الحـجـريـة، رأينـا الميـاه تهطل علينا، فبحثنا عن مكان انبثاق الينابيع، فأشاروا إلى فوق، ولم يكن ثمـة غـيـر رؤوس جـبـال قـصـيـة ومنيـعـة تناطح السمـاء..!

دققنا النظر فرأينا مـلائكة الميـاه تغـرف أباريقـهـا من قطعـان السـحب، وتسـقـي الصـخـور والأودية والرمـال العطشى، والشجر الصائم، والدواب..!

كلّنا رأينا بأعيننا المجرّدة عن السراب، والتي سيأكلها التراب يوماً، ناقة تشق بطن الصخرة وتغيب!

بدا المشهد بطيئاً ومهيباً، فصرخنا معاً بصوت واحد:

تلك ناقة الله وسقياها!

وقيل لنا: قد عقرها قوم صالح وظلموا أنفسهم ذات زمن، وها هي تدخل مع كلّ مغيب إلى الصخرة ذاتها من جديد!

كلّنا رأينا فلا يمارينا أحد منكم بالرؤى المتواترة...!

❖❖

قيل لنا:

هنا جاء نجوم هوليوود في الستينيات لإنجاز فيلم «لورنس العرب».

جاؤوا بعرباتهم وكاميراتهم ونسائهم وعطورهم وشرابهم وأسلحتهم..

عاثوا فوق الرمال.

أطلقوا النيران على قطارات عثمانية أعيد ترميمها، وجموع كومبارس من أبناء البلاد..!

سكروا في الليل، وغنّوا لمجدهم، وكتبوا تاريخنا بصورهم السينمائية كما أرادوا..!

قال لي عودة، عازف الربابة إنه حينما يكتمل البدر من كل شهر يغادر فراشه منتصف الليل باتجاه «قصر لورنس» حيث المنطقة التي شهدت تصوير الفيلم، وهناك ينتبذ مطلاً صخرياً، ويأخذ بالعزف والغناء، كما فعل قبل أربعين سنة أمام الممثلين والممثلات والمجاميع، وما إن يدخل في طقوس الهجيني، حتى يراهم أمامه من جديد يأتون إليه مهللين:

«برافو عودة».!

ما يزال يذكر منهم كبيرهم ديفيد لين، وبيتر اوتول، الفتى الأشقر، وذلك الفارس الذي ظنه الشيخ عودة أبو تايه ذات مساء، فسلم عليه بحرارة وعانقه وقبّل رأسه، فردّ عليه برطانة أجنبية لم يفقه منها شيئاً، وحده الفتى المصري الأسمر عمر الشريف كان منقذه بتفسيراته للسانهم الأعجمي، ولولاه لاختلط عليه الأمر، فما الذي أعاد شيخهم أبو تايه والثوار والأمراء ولورنس إلى الحياة من جديد بعد أكثر من ستين عاماً على رحيلهم..!

كان يراهم آخر الليل منبطحين على الرمال يدخنون ويشربون ويناجون القمر، ويذكر كلماتهم التي كانوا يصرخون بها حينما يطوحهم الشراب وتدوخهم صفحة النجوم المعلقة فوق رؤوسهم:

«Oh My God.This is Fantastic ..!»

حلف عودة بأنه يقضي ليلته معهم حين اكتمال البدر من كلّ شهر، ثم يعود إلى قريته «رم» مع الفجر، ويحدث أهلها بما رآه ولا يكون منهم غير الضحك والاستهزاء والصراخ عليه:

«المنطقة مسكونة بالجن.. وأنت يا عودة أكيد مخاويك واحد منهم».

ضحكنا كلنا عليه، ولم نصدق أيضاً خرافاته الهرمة، وحين عدنا إلى الخيام، ظللنا نتقلب دون نوم ولا سكينة، نرقب الفجر الذي طال، وفي الصباح كانت الوجوه تطفح بالدهشة أو الخوف أو الغبطة.

وكانت ثمة رؤى، وأضغاث أحلام، وحقائق، وبقايا حمّى تدير الرؤوس....!

ملحق (٢)

عمّان

(أيلول ٢٠٠١)

بدا لي أنني كنت نائماً، وسطع ضوء قويّ في الغرفة أيقظني، ففتحت عيني ببطء شديد، ووجدتني ممدداً على السرير، وشعرت بأنّي كنت أغطّ في نوم عميق ربما امتد طويلاً ليوم أو بعض يوم، ونظرت من الشباك، فرأيت بيوت عمّان بعضها فوق بعض مرصوفة كأحجار الفسيفساء على سفوح الجبال وهي تُشكّل لوحة مدهشة، ما رأيتها من قبل بكلّ هذا الجمال، وشعرت بباب الغرفة يفتح بهدوء، وأنا شبه دائخ ما بين النوم والصحو.

وقلت لنفسي إنني أعرف هذه المرأة التي دخلت، ولكن خشيت لوهلة بأنني ما أزال في الحلم، فقلت لها بتردد، وصوت واهن:

أولغا؟

وقفت مصدومة، وردّت بفرحة عارمة:

نعم أنا أولغا... يا إلهي هل تذكرتني أخيراً؟

وقلت بحيرة:

ولكن ماذا تفعلين هنا؟ وأين أنا؟

وردت بحماسة:

أنا زوجتك يا أحمد، أنا أولغا، وأنت في بيتك بعمّان

قلت لها ببطء وشرود:

ماذا.... أنا أحمد!

وردت وقد خفت حماستها قليلاً:

نعم أنت أحمد الحسيني... يا الهي ساعده لتعود إليه الذاكرة!

ثم أردفت:

انتظر قليلاً!

وخرجت بسرعة، ثم عادت بحزمة من الأوراق، وقالت:

أنظر أنت حبّرت كلّ هذه الأوراق على مدار الأربعة شهور الماضية، وكأنّ أحداً ما كان يملي عليك ذلك كلّه!

نظرت باندهاش، ورحت أتصفح بعضها باستغراب، فتبدو كأنّها قد مرت عليّ في حلم طويل، أو كنت هناك حقاً في حياة موازية وعشتها بكلّ تفاصيلها!

وجاءني صوت المرأة ليوقظني من جديد، وهي تقودني إلى غرفة مليئة بأرفف الكتب المبعثرة والأشرطة والرسومات:

أرجوك تذكر، كنّا معا في رحلة إلى صحراء رم تلك الليلة، ثم تركتنا لتتجول قليلاً، وحين أبطات علينا، وجدناك مطروحاً على الأرض في حالة إغماء، ويبدو أنك تعثرت بإحدى الصخور هناك، وحين استيقظت كنت فاقد الذاكرة، ولم تعد تعرف حتى اسمك، ومن نحن، وكنت تهذي بحكايات عجيبة غريبة، وكلّ ما كنت تطلبه الأوراق للكتابة عليها، وقال لنا الأطباء إنك فقدت الذاكرة لسبب مجهول ليس عضوياً، وقد تعود إليك ذات يوم، أو ربما لن تعود أبداً، ولكن الحمد لله يبدو أنك أفقت أخيراً ما دمت بدأت التساؤل..!

تعال انظر ثمة أشياء خطيرة تحدث في هذا العالم، فربما تساهم في إيقاظك أكثر.

قادتني إلى صالون البيت، وأنا كالمصاب بالدوار، ورأيت التلفاز يبث لقطات لطائرة اخترقت برجاً عالياً في نيويورك، والأدخنة الكثيفة تتصاعد منه، والأغبرة تغطي الشوارع والسيارات في الأسفل، فيما يقف الناس مذهولين من هول ما يجري، وبعضهم يصرخ، أو يركض كالمجنون، ولم أكد أنتبه لنفسي ومن حولي، حتى جاءت طائرة أخرى

اختـرقت البـرج الثـاني، فـشـعـرت للحظات أننـي أهوي إلى الأرض لا أقدر على الوقوف، وسـمعت صـرخات المرأة تغيب شيئاً فشيئاً وهي تنادي:

أحمد... أحم.........د..!

وكنت أغطس حينها في سواد حالك، ولم أدر كم مرّ عليّ وأنا في هذه الحالة، حتى ظهر لي وجه «المحبّ» يختـرق الظلمات بنوره الباهر من جديد، وهو يقول لي مبتسماً:

أرأيت... ربما لن يصدق أحدٌ حكايتك..ولكن حذار من القنوط، فسيأتي يوم تزول فيه كلّ الحجب، ويرى الناس كلّ ما رأيت!

يحيى القيسي

- من مواليد قرية «حرثا» شمال الأردن في العام ١٩٦٣
- حاصل على بكالوريس في اللغة الانجليزية ودبلوم عالي في الترجمة.
- عضو رابطة الكتاب الأردنيين منذ العام ١٩٩٠ وعدد من الهيئات والملتقيات الثقافية الأخرى.
- كتب العديد من المقالات الثقافية وفي النقد السينمائي .
- عمل في عدد من الصحف المحلية والعربية والمجلات الثقافية ووزارة الثقافة منذ العام ١٩٩٥
- كتب وأعد ٢٥ فيلما وثائقيا عن أبرز الشخصيات الأدبية والفنية في الأردن والأمكنة الأثرية.

أصدر من قبل:

- الولوج في الزمن الماء - قصص - ١٩٩٠
- رغبات مشروخة - قصص - ١٩٩٧
- حمّى الكتابة- حوارات- ٢٠٠٤
- باب الحيرة - رواية- ٢٠٠٦

البريد الالكتروني: Yahqaissi@gmail.com